إقرأ

على الجارم

الشاعر الطموح

دار المعارف بمصر

الشاعر الطموح

على الجارم

الشاعر الطموح

اقرأ ٥١
دار المعارف بمصر

اقرأ ١٥ — الطبعة الرابعة

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر — ١١١٩ كورنيش النيل — القاهرة ج.ع.

وقيعة

فارس فارع القد ، وسيم الطلعة ، تكشف أسارير وجهه عن نبل عريق ، وشرف رفيع ، وتنطق ملامحه ونظرات عينيه بشجاعة تفرّق منها الشجعان ، وبطولة يعزّ مثلها على الأبطال . وكان يتقلّد سيفاً حُلي غمده بالذهب ، وزيّن بنفيس الجوهر ، ويتنكّب رمحاً تقبّل أشعة الشمس سنانه فترسل بريقاً وهّاجاً يكاد يُحسر العيون . وقد امتطى جواداً كريماً راح يهملج في بخترة وزهو ، كأنه كان يعتز بكرم سُلالته ، أو يتيه بشرف منبت فارسه الشعشاع . .

سار الجواد بين الوخد والخبب فى طرق مدينة حلب ، فى يوم صائف من سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة ، فانفرجت السابلة عن طريقه كما تنفرج أمواج البحر أمام سفينة تداعب شراعها الرياح ، وأخذ الناس يتهامسون فى إجلال وخشية : هذا أبو فراس ! هذا ابن عم الأمير ! هذا بطل حصن بروزيه ! هذا فارس الدولة وشاعرها المغرّد ! وكان بين القوم رجل قوى الأسر مفتول العضل ، ظهرت فى وجهه سطور كتبتها السيوف ، ونقّطتها النبال ، فدلت على أن عمّاراً القضاعيّ جندى قديم مغامر ، عرك الوقائع وعركته ، وخاض غمارها فغمرته . قال عمّار لمن بجانبه فى صوت خافت :

ـــ لقد شهدتُ خمس وقائع مع هذا البطل ، رأيت فيها من إقدامه وجرأته ، وصدق درايته بالحروب ، ما يكاد يذهل المجاهد عن كوارث الحروب . فأجابه صاحبه :

ـــ لقد كنت إذاً مشاهداً لا محارباً . فابتسم عمّار ابتسامة مبهمة فيها ازدراء ، وفيها رفق القويّ بالضعيف ، وفيها اعتزاز الشجاع بمكانته . ثم قال :

ـــ كنت مشاهداً حقاً ولكن لا كما تشاهد اليوم أبا فراس ، وهو يتمايل فوق جواده اللعوب فى دروب حلب ، وقد نصبت السلم على المدينة رواقها ، وأصبح أهلها لا يخافون إلا من سهام عيون الحسان ! دعك يا صاحبى من ذكر الحرب والمحاربين فتلك دماء طـّهر الله منها سيوف الجبناء .

ـــ أتعدّ كلّ من لم يشهد الحرب جباناً ؟

ـــ إن اقتراب الروم من أطراف مملكتنا ، وضغنهم القديم الموروث على المسلمين وملوك المسلمين ، وادّعاءهم أن بلادنا قطعة من مملكتهم الواسعة ، اغتصبها منهم الإسلام بسيفه ، ثم ما أعدّوه لنا من غوائل الحرب ؛ كالنار اليونانية والدبابات الهائلة ، كل هؤلاء مما يوجب الجهاد ويدفع كل مسلم إلى امتشاق الحسام والموت فى سبيل دينه ووطنه شهماً كريماً .

ـــ أما أنا فلن أمتشق الحسام ، ولن أخوض غمار الهيجاء . فنظر إليه عمّار فى اشمئزاز ، وقال ولسانه يتعثّر من الغيظ :

— كنت أظنّ قبل أن أراك أن اللحَى من خصائص الرجال .

— وهى لا تزال من خصائص الرجال ، وإن أمامك لرجلا .

— رجل بلا قلب .

— رجل لولاه ما امتلأت خياشيمك كبراً ، ولا انثنى عِطفك تيهاً عند ذكر الحرب والنزال .

— من تكون ؟

— أكون كما أكون .

— بالله قل لى من تكون ؟ فأجاب الرجل وفوق شفتيه ابتسامة ماكرة :

— أنا يا سيدى الشجاع المغوار صانع سيوف ، لولا يده هذه ما جرّدتَ أنت ولا قائدك أبو فراس فى الحرب صَمصاماً .

فضحك عمّار طويلاً ومدّ يده إلى صاحبه فى سرور ، يشعر به من وجد فى عدوّ صديقاً جديداً . ثم أخذ يشدّ على يده ويهزّها هزاً ويقول :

— صانع سيوف ؟ ! حقاً لولاك ما حملتنا إلى الجهاد قدم . نعم يا صاحبى ، أنت لا تشهد الهيجاء ، ولكنَّك حقاً نون النصر فيها وصاده وراؤه ، ولولاك ما عزّ للمسلمين جانب ، ولا خفق على حصونهم علَم . انظر ما أظن أبا فراس إلا ذاهباً إلى قصر الرحبة .

— إنى لمحت فى وجهه كُدرة الغضب ، وأخشى أن يكون

قد جاء إلى الأمير نذير جديد من قِبَل الروم .

ـــ أظنهم سيقضون وقتاً طويلاً يلعقون فيه جراحهم ، بعد هزيمتهم فى « سَروج » . تلك كانت موقعة رائعة حقاً . لقد زحف فيها الروم علينا فى عديد الحصى ، وقد اشتجرت رماحهم حتى سدّت الأفق ، وصال بطاريقهم ، ووثبت دباباتهم ، وتطايرت نيرانهم التى لا تذر من شئ أتت عليه إلا جعلته كالرميم . وقد أعجبتهم فى ذلك اليوم قوتهم ، وزهاهم ما أجلبوا به من خيل ورَجْل وعُدة وعتاد ، وزُلزل المسلمون زلزالاً شديداً ، واتجهت عينا سيف الدولة إلى السماء فى رجاء المستغيث ، حتى إذا اشتد الكرب ، وبلغت القلوب الحناجر ، سمعنا على الرغم من لَجَب الحرب وزمازمها ، صوتاً مجلجلاً يصيح : إلىّ إلىّ أيها المجاهدون ! إن أبا فراس قائدكم المفاخر بشجاعتكم ، يدعوكم لتختطفوا ثمر النصر من أيدى هؤلاء العلوج . إن دباباتهم لن تغنى عنهم اليوم شيئاً ، وإن قلباً يملؤه الإيمان ، وذراعاً تشدها العزيمة ، أقوى من كل ما جمعوا وعدّدوا . إننا أيها الأبطال لم نجاهد لأرض وقلاع ، وإنما نجاهد لدين وتاريخ ومجد قديم . إن الروم إذا برعوا فى الحرب فهم فى الفرار أبرع إذا حَمِيَ الوطيس ، وصدقت الحملة . إلىّ إلىّ أيها المجاهدون ، ثم إلى الجنة إلى الجنة أيها الشهداء ! وما كاد يتم نداءه حتى وثب بجواده نحو الحصن ونحن خلفه كالأسود الغاضبة ، ريع حماها ،

وديس عرينها ، وتكاثر حوله الروم فكان يطوح برءوسهم يمنة ويسرة ، كما ينثر الزارع الحب .، حتى إذا وصل إلى القمة خلع راية الروم ، وقذف بها فى التراب ثم صاح : الله أكبر ! الله أكبر ! فردد الجيش صيحته ، وتواثب المسلمون على الحصن ، حتى أجلوا الروم عنه ، فانطلقوا خلف بطاريقهم فى سرعة الريح يلتمسون الفرار ، وعاد المسلمون بالنصر والأسرى والأسلاب والغنائم .

– لقد كان ذلك فتحاً مبيناً .

– وسيتلوه فتوح لو اتحد العرب ، وكانوا يداً على من سواهم . عم صباحاً يا صاحبي ، واعمل فى طبع السيوف ليل نهار ، فإنى أخشى أننا لا نزال فى بداية صراع طويل الأمد .

بلغ أبو فراس أرض الحلبة ، وهى فى سفح جبل الجوشن ، ووصل بعد قليل إلى قصر سيف الدولة بن حمدان ، وكان قصراً سامق البنيان ، يطل على نهر قويق ، بذل فيه المهندسون والرسامون كل ما فى مكنة البشر من إبداع ، وزينت حيطانه وسقوفه بالنقوش البارعة ، والتهاويل الرائعة ، وكان لقاعته الكبرى ، وهى قاعة الرسل خمس قباب تحملها اثنتان وأربعون ومائة سارية من الرخام الأبيض الناصع ، المحلى بالذهب . وبها مئات من النوافذ الزجاجية البديعة الألوان ، أما الأثاث فكان فوق ما يصف الشعر ويرسم الخيال ، وقد أحاطت بالقصر الحدائق والبحيرات يجرى إليها الماء من تماثيل سمك ضخم ،

صنع من خالص النضار ، وركبت له عيون من ثمين الجواهر .
وما كاد أبو فراس يثب من صهوة جواده ، حتى تلقاه بشارة ونجا ، غلاما سيف الدولة ، بما يليق بمنزلته من إجلال وحفاوة ، وكان أبو فراس لا يزال عابساً متجهم الوجه ، فانحنى نحوه نجا قائلاً :

ـــ سعد صباح الأمير ، ما للوجه المشرق البسّام تعلوه اليوم سحابة عابسة ؟ فهل فى الأمر شىء يا مولاى؟

ـــ لا شىء يا نجا ، ولكنها ظنون الشاعر وهواجسه ، التى كثيراً ما تطغى على ثبات الفارس وركانته ، وتصور له فى الحلم ذلاً ، وفى الإقدام طيشاً وجهلا . أتعرف يا نجا لمن هذا البيت :

كلُّ حِلْمٍ أتى بغير اقتدار حجةٌ لاجئٌ إليها اللئامُ ؟

فأسرع نجا وكان من أنصار المتنبى المعجبين به فقال :

ـــ هو يا سيدى لأبى الطيب من قصيدته التى يقول فيها :

إنّ بعضاً من القريض هُذاء ليس شيئاً وبعضَه أحكامُ

فاربدّ وجه أبى فراس وقال : نعم إنه لذلك الزِقّ المنتفخ بالعظمة الحمقاء ، والغرور الكاذب ، أين ابن عمى يا نجا ؟

ـــ فى القاعة الكبرى يا سيدى . فسار أبو فراس فى دهاليز القصر وأبهائه ، وقد انتثر فيها العبيد والمماليك الروم ، يروحون ويجيئون فى حركة دائبة ، ورهبة وإطراق ، يعرف كيف يصطنعهما رجال القصور . فلمّا وصل إلى القاعة تلقّاه سيف الدولة مرحّباً باشاً . وكان سيف الدولة جسيماً قسيماً ، واسع

العينين تشعُّ منهما عزيمة المجاهدين ، وفى وجهه سمرة العرب ، وملامح النبل والبطولة .

أخذ أبو فراس يتحدث عن الجيش ، وما يبذل فى إعداده لمكافحة الروم ، وردّهم إلى تخومهم . فتململ سيف الدولة فى حزن وأسىً وقال : أخشى يا ابن عمى أن القوم هنا لا يدركون ما يحيط بالدولة من خطر داهم ، فإنى أرى أكثرهم منصرفاً عن الجهاد ثقة بى ، واعتماداً على عظم قوتى ، كأن فى سيفى سحراً بابلياً إذا لوّحت به للأعداء انهارت جيوشهم فى طرفة عين . إن بمملكتى أبطالاً ، ولكن بطولتهم مخبوءة مغمدة ، لأنهم يظنون أنهم يعيشون فى ظلال وارفة من الأمن ، وأن أعظم معونة يبذلونها للدولة أن يسيروا فى مواكبها ، ويأخذوا زينتهم فى صدور مجالسها .

— نحن لا تعوزنا السيوف يا مولاى ، ولا تعوزنا السواعد المفتولة ، ولا القلوب الضيغمية ، وكل عربىّ منا يضع قلبه ورمحه فى أول الصفوف ، إذا جدَّ الجدّ ، وأذّن مؤذن الجهاد ، ولكن الذى نحن فى أشد الحاجة إليه حقاً أصوات رنانة مجلجلة ، تثير الحمّية وتلهب العزائم ، وتخلق من اليأس ثقة ، ومن التردد إقداماً ، وتذكّر بالمجد الغابر ، وتوجه الأمل الحائر ، وتوقظ النفوس إلى ما يحيط بها من كوارث تريد أن تنقض . المملكة يا سيدى تتحرّق شوقاً إلى من يذيع مآثرها ، وينشر مفاخرها ، ويملأ الآذان بوقائعها المظفّرة ، وبحسن بلاء أبطالها الميامين .

ــ ألا يقوم المتنبي بهذا ، وهو خير شاعر أنبتته أرض العرب ؟

ــ إنه لا يقوم بشيء منه يا مولاى ، وهو رجل صلف تيّاه ، شائك الخلق نافر الطبع ، أبغض الناس فأبغضوه فنفرت قلوبهم من شعره .

ــ إن بيتاً واحداً من شعره كفيل بأن يملأ الآفاق ، ويشغل الدنيا ، ويرفع الدولة التي يغنى بمديحها إلى مسارح النجوم .

ــ إن الشعر يا ابن العم روح قبل أن يكون لفظاً ووزناً ، وهو شعاع من نفس قائله ، ونور يفيض به قلب صاحبه ، فإذا كانت تلك النفس مظلمةً قاتمةً مدنسةً بالحقير من الأغراض ، وكان ذلك القلب نهباً للأطماع الدنيئة . جاء منهما الكلام فاتراً خائراً مقطوع النفس ، ضعيف المُنّة .

ــ هل ترى من هذا النوع قوله :

بذا قضت الأيام ما بين أهلها
مصائب قوم عند قوم فوائدُ ؟

ــ وماذا فى هذا البيت يا مولاى ؟ إنه لم يبذل فيه جهداً ، ولم يعمل رويّة . ويعلم الله أنه استرق معناه سرقة الطرّار البارع فى النهار المبصر . استرقه من شاعر دفنته يا مولاى حيًّا بالانصراف عنه ، والاستهانة بشعره . استرقه من شاعر غنى بمجد دولتك ، فما ألقيت إليه سمعاً ، وأشاد بمآثرك فما حققت له أملاً . ذلك الشاعر يا مولاى هو أبو الحسين الناشئ الأصغر ، الذى يقول

فيك حينما شغلك عنه انصرافك إلى ذلك المتنبي ، واحتفاؤك
به ، وإسكات كل صوت للشعراء دونه :

إذا أنا عاتبت الملوك فإنما
أخطُّ بأقلامي على الماء أحرفا

وهبه ارعوى بعد العتاب ألم يكن
توددُه طبعاً فصار تكلّفاً ؟

ـــ حقاً كان من حق الناشئ عليّ أن ينال من إقبالي عليه
ما هو حقيق بشعره وأدبه ، إني أعذره يا أبا فراس ، فقد أبطأ
عنه عطائي حيناً من الدهر طويلاً : هل سرق معناه الرائع
من هذا الشاعر الذي ظلمناه وبخسناه حقه ؟

ـــ نعم يا ابن العم سرق المعنى من قصيدة لهذا الشاعر ينوّه
فيها بصولة بني حمدان ، ويذمّ بني العباس ، الذين لا يفتئون
يدسون لهم الدسائس غَيرةً وحسداً ، ويغرون في الخفاء بعض
القبائل الخارجة علينا ، كبني كلاب وبني العجلان ،
بالانتقاض على مملكتنا ، ومصارحتنا بالعصيان فهو يقول :

إليكم بني العباس عني فإنني
إلى الله من ميلي إليكم لتائبُ

تركت طريق الرشد بعد اتضاحه
وأقصاكم عنه ظنونٌ كواذب

أترضونْ أن تطوى صحائف عصبة
كرامٍ لهم في السابقين مراتب ؟

فلا تذكروا منهم مثالب إنما
مثالبُ قوم عند قوم مناقب

— حيّا الله أبا الحسين! لقد أحسن الذود عنا ، ولكنى لا أرى أن أبا الطيب سرق منه معناه ، لأن هذا فى ناحية ، وبيت أبى الطيب فى ناحية ، إلا أن تدعى أنه سرق الأسلوب والأسلوب ملك شائع لجميع الشعراء . لا يا ابن العم إن المتنبى أرفع قدراً ، وأبعد منزلة فى الشعر ، من أن يتدلّى إلى فتات غيره . إننى شاعر قبل أن أكون ملكاً وفارساً ، ومعرفتى بابتداع الكلام لا تقلّ عن درايتى بامتشاق الحسام .

فاربدّ وجه أبى فراس قليلا ، وأطرق واجماً ، ثم رفع رأسه وعلى وجهه ابتسامة الظفر ، وقال :

— مهلا يا ابن العم ، فما خالجنى شك من تمكنك من ناصية الشعر ، واستذلالك أوابد المعانى ، ولولا ذلك ما أجاد شعراء المملكة فى مديحك ، ولا جودوا فى الثناء عليك ، لأنهم يعلمون أنهم يعرضون نسيجهم على خير بزّاز ، ويقدّمون فنهم إلى أمهر الأدباء فى تصاريف الكلام . ولعمرى إن شاعراً لم يسبق مولاى فى وصف قوس قزح حين يقول :

وساقٍ صبيحٍ للصبوح دعوته
فقام وفى أجفانه سنةُ الغُمض

يطوف بكاسـات العقار كأنجمٍ
فمن بين منقض علينـا ومنفض

وقد نشرت أيدى الجنوب مطارفاً
على الجودُ كنا ، والحواشى على الأرض
يطرّزها قوسُ الغمام بأصفر
على أحمر فى أخضر تحت مبيضّ
كأذيالِ خَوْدٍ أقبلت فى غلائل
مصبّغة ، والبعضُ أقصرُ من بعض

وإذا لم يرض مولاى أن يكون المتنبي قد أغار على بيت الناشئ ، فما أظنه يجحد أن شاعره اللص سرق هذا المعنى بعينه من قول الحارث بن حِلِّزة :

ربما قرت عيونٌ بشجاً مُرْمِضٍ قد سخنت منه عيون

وأكبر الظن أن شاعره ، وهو أعجز من أن يمتدّ حفظه إلى العهد الجاهلى ، وجد الطريق سهلة مذللة إلى حبيب بن أوس الطائى ، فاغتصب المعنى من قوله :

ما إن ترى شيئاً لشئ محيياً حتى تلاقيه لآخر قاتلا

ماذا تقول يا سيدى فى هذه السرقة الصارخة ، وتلك الإغارة الوقحة ، التى لا تقلّ عن إغارات اللصوص ، وقطّاع الطريق ؟

— لقد نظر المتنبي إلى معنى الطائى ما فى ذلك شك .

— ثم إن هذا السارق لا ينكس رأسه خزياً ، بل ينفخ خياشيمه ، ويتحدّى كل شاعر من شعراء مولاى فى جبرية وعجب ، إنه فى هذه القصيدة التى استشهد مولاى ببيت منها يقول :

خليليّ ما لى لا أرى غير شاعر
فلِمْ منهم الدعوى ومنى القصائد ؟
ويقول فى أول قصيدة أنشدها بين يدى سيدى :
غضبتُ له لمــا رأيتُ صفــاته
بلا واصف ، والشعرُ تهذى طماطمه

فيصف جميع شعراء مملكتك بأنهمّ عُجم لا يُبينون ، وعلوج لا يفهمون ، وأشهد أن الشعراء لم يغضوا عنه عجزاً عن معارضته ، فإن لكل منهم لساناً لو ضرب به حجراً لفلقه ، وإن فى شاعرك المغرور المتشدق من وضاعة النسب ، وسماجة الخلق ، ولؤم العنصر ، ما يغرى ضوارى الشعراء ، وما تتحلب له نهماً أفواه الهجاء ، ولكنهم سكتوا مرغمين محزونين ، لأنه فى كنف مولاى وحمايته ، ولأنهم يظنون أن ثلبه ، وتمريغه فى التراب ، قد يغضب مولاهم ، فتركوه لك يا سيدى ولكنك تركته عليهم يمزّق أعراضهم ، ويسخر من فنهم ، ويتحداهم فى بذاءة وجبروت ، وقد كان من أثر هذا أن انصرف الشعراء عن مدحك ، فلا يحييك منهم شاعر بكلمة ، وتفرّد بك هذا الشاعر الدخيل فأخذ يتيه عليك ، ويخاطبك مخاطبة الند والنظير ، ويمر العام فلا يجود عليك إلا بقصيدة أو قصيدتين ، بعد أن تلح فى الطلب ، وتلحف فى المسألة ، وبذلك انقلب الوضع ، وعكس الأمر ، وأصبح الأمير يستجدى شاعره ، وأصبح الشاعر يراوغ ويماطل فى العطاء ، ما هذه الحال يا مولاى ؟ !

ـ لقد قلت حقاً يا ابن العم ، ولكنى أخشى إذا انصرفنا عن هذا الشاعر أو صرفناه ، أن يلحق بأعدائنا ، فيرفع من شأنهم ، ويشيد بمجدهم . وقد علمت أن عبد الإخشيد بمصر يبذل الآن فوق ما يستطاع لاستهوائه وإغرائه بالجاه والمال ، ليصل إلى أرض مصر ، ولست تجهل يا أبا فراس ما بيننا وبين الإخشيد من عداء محتدم ، فقد وثبت علينا جيوشه منذ سنوات فاستولت على دِمَشْق زينة العواصم ، وغزّة جبين الشام .

فإذا ذهب المتنبي إلى العبد زاد دولته قوة ، ومسح عنه عار الرِّق ووصل نسبه بمعدّ بن عدنان . ثم إنى أخشى ، وهو لدود الخصام علقميّ اللسان ألا يتعفف عن أن ينالنا بهجائه ، وهو نفسه الذى يقول :

ومكايدُ السفهاءِ واقعةٌ بهم وعداوةُ الشعراء بئس المقتنَى

ـ إنه لن يَذهب إلى مصر يا مولاى ، كن من ذلك على يقين . إنه يذهب إلى العراق ، ليتصل بالخليفة والوزير المهلبي فإن كبره سيزيِّن له أنه أحقُّ شعراء الأرض بالاتصال بالخليفة ، وأن شعره أغلى من أن يبعثر على الأمراء وحكام الأطراف . وإذا بلغ بغداد يا ابن العم فإن مائة دينار من خزانتك هذه ، ترسل إلى ابن الحجاج وابن سُكرة ، وهما أقذع الشعراء هجاء ، وأفحشهم سباباً كفيلة بأن تشغله عن هجاء الناس جميعاً ، وتدفعه إلى الانصراف إلى نفسه .

ـ لا أكذبك أبا فراس أنى سئمت كبره وإدلاله وتجنيه ،

ولن أنسى ما اشترطه علىّ ذلك الأحمق عند أول اتصاله بى من ألاّ يكلف تقبيل الأرض بين يدى، وألا يخلع سيفه فى حضرتى، وألا ينشدنى شعراً إلا وهو جالس، ولقد قبلت منه كل ذلك على مضض، حين ظننت أن إغداقى عليه، وإحسانى إليه يروضان من نفسه الجامحة، فما أجدى ذلك فتيلاً.

ــ إنك يا مولاى تمنحه كل عام ثلاثة آلاف دينار، غير ما تفيض عليه من الصلات والهبات، ثم إنك لا تظفر منه بعد كل هذا إلا بثلاث قصائد، نصف أبياتها فى مدح نفسه والازدهاء بمواهبه، ولو فرّقت فى كل عام مائتى دينار على عشرين شاعراً لأتوا بالمعجز المطرب، ولبذوا ذلك الوقح فى كل ما يتبجح به من إجادة وإعجاز، إن شعراء مملكتك، والشعراء الوافدين عليك قد يزيدون على المائة وهم يا ابن العم يرتقبون منك نظرة عطف، ليملئوا الدنيا باسمك دويًّا، ويرسلوا أجنحة الشعر بمديحك خفّاقة فى الآفاق.

ــ صدقت أبا فراس لن يكون لهذا الشاعر الزنيم مكان من رعايتى بعد اليوم! غير أنى أرى أن نخرج من هذا الأمر بكياسة ورفق، كما دخلنا فيه بكياسة ورفق.

ــ هذا ما أشير به يا مولاى، ويكفى أن تصد عنه شهراً حتى يزمع الرحيل.

وحينما انتهى أبو فراس من إحكام مؤامرته، حيّا سيف الدولة وانصرف. وما كاد يعود إلى قصره، وكان بالقرب من

برج أبي الحارث ، حتى رأى به طائفة من الشعراء ينتظرون عودته ، بينهم أبو العباس النامى ، وأبو الحسين الناشئ ، وأبو القاسم الزاهى ،وأبو الفرج السامرّى ، وكان من ألد أعداء أبى الطيب الحاقدين عليه . فلما رأوه هبّوا لاستقباله محتفين ، وطفقوا يسألونه فى شوق ولهفة عما تم فى أمر المتنبى وسيف الدولة . فنفض إليهم جملة الخبر ، وحدثهم بصوت الظافر المنتصر . بما عزم عليه سيف الدولة من نبذ المتنبى ، وتقريب شعراء مملكته . فطار الفرح بقلوبهم وأخذ كل منهم يفكّر فى مطلع قصيدة يمدح بها سيف الدولة ، ليكون من السبقين الأولين .

أخذ سيف الدولة يفكر فى أمر المتنبى ، بعد أن تركه أبو فراس وقد تراكمت عليه الهموم ، وانتابته الظنون ، وعبثت به الهواجس . فهو مرة يرى أن أبا الطيب صنّاجة ملكه ، وناشر فضله ، وأنّه الغاية التى تتقطّع دونها أنفاس الملوك ، والحلم الذى يتطلّع إلى تحقيقه كل أمير ، وأنه أشعر من رددت أصداءه آفاق العرب ، وأندى صوت يجلجل بالشعر فيخوض البحار ، ويثب الجبال ، لا يقف دونه سدّ ، ولا يعترضه حائل ، وأن شعره جيش أقوى من الجيش ، وعتاد يزدرى بكل عتاد . من هو سيف الدولة حتى يظفر بدولة الشعر كلها مجتمعة فى رجل يمجد فعاله ، ويخلد محامده ، ويبث الرعب فى قلوب أعدائه ؟

يرى سيف الدولة كلّ هذا ، فيرفع رأسه باسماً مبتهجاً ، وقد كاد يثلج صدره برد اليقين ، ولكنه لا يفتأ حتى تهجم عليه

الوساوس من كلّ مكان ، صارخةً عاوية وهى تصيح : ما هذا التدلّى إلى الحضيض ؟ وما هذا الاستخذاء لشاعر مجنون بالعظمة تيّاه على الملوك ؟ أنت يا ابن حمدان ملك من سُلالة ملوك ، ولكنك فى سبيل أمل كاذب ، من نبى كاذب ، نزلت بنفسك إلى الهاوية حتى صرت له مملوكاً ! أذكر إن كنت ناسياً أنه يقبل صلاتك الجزيلة أنفاً ، ويتقلب فى نعمتك حاقداً . واذكر إن كنت ناسياً أنه لا يجود عليك بقصيدة إلاّ كارهاً متثاقلاً ، ثم اذكر أنك كثيراً ما استبطأت مديحه فأفنيت الحيل فى استجدائه ، فتارةً ترسل إليه أبياتاً لشاعر ليقول على مثالها ، وتارةً تزعم أنك أعجبت ببيت قديم لتستثير خاطره الراكد ، وخياله الكليل . كلّ هذا وهو سادر فى غروره وكبريائه ، يسخَر فى خبيئة نفسه من الملوك والممالك ، ويردّد فى صدره قولته الحمقاء :

أىَّ محـــل أرتقى   أىَّ عظــيم أتّقى
وكلُّ ما خــلق الله   ـهُ وما لم يخلُق
محتقــر فى همّتى   كشعرة فى مفْــرِقى

إنه وأيمُ الحق رجل ثقيل الظل ، مستكرهُ الطباع ، ولو كان ينطق بالوحى ، ويستملى شعره من ملائكة السماء ! إن نُفْرة الناس منه ذهبت بروعة شعره ، فلم يجد بين القلوب منزلاً . ويلٌ له منى ! لن يعيش هذا الرجل فى مملكتى بعد اليوم ، فإنه لا تُؤمن عواقبه . وهو حقود لئيم ، يسخط على اليد تمتدّ

إليه بالإحسان ، ويأنف من النعمة يسوقها إليه كريم . أليس هو القائل :

مدحتُ قوماً وإن عشنا نظمتُ لهم
قصائداً من إناثِ الخيل والحُصُنِ
تحت العَجاج قوافيها مُضمرّةٌ
إذا تنوشدن لم يدخلن فى أذُن

لا . لا . فليخسأ ذلك المتشدق . أو ليرحل من بلادى إلى أيِّ بلد شاء . لا أريد شعراً ، ولا أريد ذلك المجد الموهوم الذى سيخلِّده شعره .

قال سيف الدولة هذا ، وهو يحرك ذراعيه فعلَ الغاضب المحموم . ثم قام متجهاً إلى الجناح الذى به أهله بعد أن زالت عنه آلام الشكوك ، وسكنت نفسه إلى ما عقد عليه العزم . وبينما هو يسير فى دهليز طويل ، إذ سمع أصواتاً فى حجرة ، فاقترب وأنصت ، فإذا غُلامُه نجا وأبو الحسن بن سعيد راوية المتنبي يتحاوران ، فأرهف السمع فإذا نجا يقول :

— إنها من أروع قصائده ، وكل شعره رائع خلاّب . استمع لى يا مولانا وأصلح خطئى إذا أخطأت :

فديناكَ من رَبْعٍ وإن زدتنا كربا
فإنك كنتَ الشرقَ للشمس والغربا
وكيف عرفنا رسمَ من لم يدع لنا
فؤاداً لعرفان الرسوم ولا لُبّا ؟

فصاح ابن سعيد : هذا شعر كان فى صدور الشعراء سراً مكتوماً حتى جاء أبو الطيب فأفشاه ، وكان فى كهف الغيب رحيقاً مختوماً حتى ظهر ابن الحسين ففَضّ ختِامه . اقرأ يا بنىّ من مديحه :

هنيئاً لأهل الثغر رأيُك فيهمُ
وأنك حِزْبَ الله صرتَ لهم حزبا

وأنّك رعتَ الدهرَ فيها وريبَه
فإن شكّ فليحدثْ بساحتها خطبا

فيوماً بخيل تطرُدُ الرومَ عنهمُ
ويوماً بجود تطرُدُ الفقرَ والجدبا

سراياك تترَى والدُمُسْتُق هاربٌ
وأصحابُه قتلى وأموالُه نهبى

أتى مرْعشاً يستقربُ البعدَ مقبلاً
وأدبر إذا أقبلتَ يستبعدُ القربا

كذا يتركُ الأعداء من يكره القنا
ويقفُلُ من كانت غنيمتُه رعبا

مضى بعد ما التفّ الرماحان ساعةً
كما يتلقّى الهدبُ فى الرقْدةِ الهدبا

ولكنّــه ولى وللطعن سَوْرة
إذا ذكرتْها نفسُه لمس الجَنْبا

الله ! الله ! هذا فيضُ الكريم الفتّاح ، هذا ليس بشعر

يا ولدى ، إنه يكاد يكون من وحى جبريل . إن شعراء سيف الدولة جميعاً أعجز من أن يقولوا :

ولكنه ولّى وللطعن سورةٌ   إذا ذكرتها نفسُه لمس الجنبا

فصاح نجا قائلاً : أتعرف يا سيدى أنى كتبت نسخاً من هذه القصيدة وبعثت بها إلى مصر وبغداد ودمَشْق وفارس وإفريقية والأندلس ؟

كان سيف الدولة يسمع هذا الحوار ، ولكنه لم يُطق أن يصبر طويلاً فدخل الحجرة غاضباً وقال :

ما هذا الهذر الذى تخوضان فيه ؟ قاتل الله المتنبى وشعره ! أكلما ذهبت إلى مكان سمعت الناس يتحدثون فى هذا الوغد أو يدرسون شعره ؟ إن بابى سيغلق دونه بعد اليوم . لقد علمت من ابن عمى أبى فراس من شأن هذا الرجل ما كنت أجهل . إنه يتقلّب فى نعمتى ويضمر لى ولمملكتى أسوأ ما ينطوى عليه ضمير . فليذهب إلى حيث يشاء ، وليجعل من ملوك الأقطار التى ينزل بها آلهة تعبد ، فلست فى حاجة إلى هذره وهُرائه .

ولما انصرف سيف الدولة التفت ابن سعيد إلى نجا وقال هامساً :

— دسيسة جديدة وربِّ الكعبة . لقد أوشك أعداء أبى الطيب أن يظفروا به هذه المرّة ، ولكنى لن أنيلهم مأرباً . لن أتركهم ينالون من هذا السرّ السماوىّ غرضاً . إنه الحسد يا بنىّ الذى قتل النبوغ فى العرب ، وذهب بريح العرب . أين نعلاى ؟

– إلى أين أيّها الشيخ ؟

– إلى أبي الطيب . إلى نادرة عُطارد . إلى الذى يقول :

وما أنا منهُمُ بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرّغامُ

صلح

سار أبو الحسن بن سعيد حزيناً مطرقاً ، يخرج من دَرْب إلى درب ، ويتخلّص من زحام ليغرَق فى زحام ، وكانت حلب فى ذلك الحين من أعظم مدن الشام ، تشرف على نهر قُويق ، ويحيط بها سو رشاهق ، بنى بالحجر الأبيض الضخم ، به ستة أبواب ، وإلى جانب السور قلعتها الحصينة الحمراء ، التى تطلُّ على المدينة شامخة متحدية كما يربُض الأسد حول العرين . وكانت فسيحة الطرق ، كثيرة القصور ذات الطابع البيزنطىّ ، كثيرة المساجد والفنادق والمتاجر والحدائق ، مزدحمة بالسكان من عرب وترك وأرمن وروم .

سار ابن سعيد حتى بلغ ساحة الناعورة ، حيث القصر السامق الذى أهداه سيف الدولة إلى المتنبي ، فولج بابه مهرولاً ، فتلقّاه العبيد ، وأقبل عليه مسعود كبير الخدم فحيّاه فى أدب ولطف . فابتدره الشيخ :

– أين سيدك أبو الطيب ؟

– فى حجرة الزّوار يا سيدى .

— من معه الآن يا مسعود ؟
— معه الحسين الصنوبرىّ وأبو الفرج المخزومىّ .
— فيم يتحدثون ؟ . فابتسم العبد وأجاب :
— فى الشعر يا سيدى. وهل فى حلب اليوم حديث إلاّ فى الشعر ، وغزوات الروم ؟

وانفلت ابن سعيد من بين يدى العبد إلى لقاء المتنبى ، فدخل حجرة فسيحة ، ثمينة الأثاث ، فرشت أرضها بالبسط الفارسية ، وغطّيت نوافذها بسجوف الحرير المصرية ، ونضّدت حولها الأرائك ، وكان أكثر ما يسترعى نظر الناظر فيها كثرة خزائن الكتب ، وكثرة المناضد التى ألقيت عليها الكتب أكداساً ، وكان المتنبى جالساً أو على الأصح مضطجعاً على كرسىّ ضخم ، فى صدر المجلس . وهو طويل فاره فى التاسعة والثلاثين من عمره ، خفيف اللحم ، أسمر اللون ، عريض الجبهة ، برّاق العينين ، شديد سوادهما ، مستقيم الأنف ، ترتفع أرنبته إلى ما يقرب من الشمم ، فى شفتيه رقّة ، وفى عنقه صَيَد ، وفى ملامحه ثقة المعتزّ بنفسه ، وفى نظراته كبرياء العباقرة ، وفى صدره المرتفع ما ينمّ على ما يملأ هذا الصدر من آمال جسام . وكان يرتدى ثوب فارس كامل العُدة ، ويهزّ قدمه بين الحين والحين فى إعجاب وزهو ، فتصطدم بغمد سيفه الذى طال نجاده .

دخل ابن سعيد فقطع على المتحدثين حديثهم ، وحياه المتنبى بنظرة لطيفة ، فيها ترحيب لم يذهب بجماله ما فيها من

كبرياء . وأخذ المخزومى يصل الحديث ويقول :

ـ فلما رآنى . . . فابتدره ابن سعيد سائلاً :

ـ من الذى رآك ؟

ـ أبو الحصين الرَقى قاضى حلب . كنت أقول : إننى كنت ماراً بالأمس بسوق الورّاقين ، وكان الرقى جالساً عند وضاح بن سعيد الوراق ، فلما رآنى صاح : إلىّ يا أبا الفرج فإن شيطانى لا يريد أن يفارقنى اليوم ، لقد تلجلج فى صدرى بيت من الشعر منذ الصباح ، وقد عيل صبرى فى رده إلى قائله ، فهل لك أن تنقذ أخاك من خبال الشك ؟ قلت : هات يا سيدى ، لعل الله معقب بعد عسر يسراً. قال : من قائل هذا البيت يا ابن أخى ؟

خيرُ أعضائنا الرءوس ولكن فَضَلَتها بقصدك الأقدامُ

وكنت أعلم أن الشيخ حاقد على أبى الطيب ، شديد الكراهة له ، كثير الإيقاع بينه وبين سيف الدولة . فقلت : قائل هذا هو الذى يقول :

وإذا كانت النفوسُ كباراً تعبتْ فى مُرادها الأجسامُ

فقال أحسن والله وأجاد.! فمن هو ؟ قلت : هو الذى يقول :

عقدت سنابكها عليها عثيراً لو تبتغى عنقاً عليه لأمكنا

فقال : هذا وحى السموات العلا ! فمن هو والله ولا تطل ؟

قلت : هو أيضاً الذى يقول :

أقبلتُها غرَر الجياد كأنمـــا أيدى بنى عمران فى جبهاتها

فصاح هذا تشبيه عزّ أن يناله خيال ، من هذا الشاعر ناشدتك الله ؟ قلت هو الذى يكيد له سيدى القاضى ، ويصارحه بالعداء ، ويدس له عند سيف الدولة ! فصاح : هو المتنبى إذاً . آمنت أنه الشاعر ! إنه يا ابن أخى يحيينا بشعره ، ولكنه يميتنا فى اليوم ألف مرة بزهوه وإعجابه .

فضحك القوم ، وابتسم المتنبي ابتسامة فاترة ، ملؤها السخرية والأنفة . ثم قال فى تعاظم :

عجباً لهؤلاء القوم ! إن لم أنزل إلى الوهدة التى تردوْا فيها ، والحمأة التى تمرغوا فى دنسها ، قالوا : إننى مزهوّ متكبر . إنهم يسمون الفضيلة عُجباً ، والإباء كبراً ، والتنزه عن الدنايا تيهاً وصلفاً ، وماذا أصنع وقد خلق الله لى نفساً عزوفاً عن كل ما يشين ، طموحاً إلى ما فوق السماء إن كان للسماء فوق ؟ وإنى أشهدكم أنى ضقت بهم قبل أن يضيقوا بى . إننى طائر يعيش فى غير وكره ، وأمل حائر لا يجد له مستقراً ، ولطالما نفرت نفسى من مجالسهم ، واشمأزت من عبثهم ولهوهم . فإنى إذا لم أعاقر الخمر معهم ، قالوا جلف نابى الخلق سيئُ المعاشرة . وإذا لم أمدل إلى مغازلة النساء المتبذّلات ، قالوا : سمج الذوق ، غير مصقول الطباع . وإذا لم أتخذ من الغلمان أسراباً وأسراباً كما يفعلون ، نبزونى بأسوأ الصفات ، وأشنع الألقاب . فماذا أصنع فى هؤلاء ، والفجور عندهم محمدة ، والسموّ إلى معالى الأمور كبر وغرور ؟ ولقد يذهب بى الفكر والهمّ أحياناً إلى

أن أعتزم الرحيل عنهم ، وقطع المفاوز دونهم ، فإنه لا يزال في فسيح الأرض مضطرب للكريم الذي يطلب ما يعجز الطيرَ وِرْدُه ، ويبتغي ما هو أجلُّ من أن يسمَّى .

دعاني منذ أيام أحمد بن نصر وزير سيف الدولة ، إلى مجلس من مجالس أنسه ولهوه ، فأبيت وأبيت ، ولكنه أطال في الرجاء وألحف ، فذهبت إلى داره كأنما أقاد إليها بالسلاسل . وماذا رأيت ؟ رأيت طائفة من كبار المملكة ، بينهم أبو فراس وأبو الحصين الرقيّ هذا الذي يزعم أن زهوي وإعجابي يميته في اليوم ألف مرّة ، ورأيت كثيراً من قواد الجيش ، وأدعياء الشعر والأدب في هذه المدينة ، رأيتهم وقد لعبت الخمر برءوسهم جميعاً ، فذهب عنهم العقل ، وطار منهم الحياء . وكان السقاة يطوفون بالأكواب ، فما مروا برجل إلا أفرغ كئوسهم في بطنه ، وشرب شرب الهيم . وكانت الجواري الروميات ، وهن في أجمل زينتهن ، يرسلن شباكهن لصيد القلوب وإثارة النزوات : بين غمزة ساحرة ، وبسمة فاتنة ، وانثناء لعِطْف ، واهتزاز لنهد ، وقبلات ترسل بالأكف ، وإشارات تعبَث بالعقول ، وهمسات أثيمات ، وذعر مصطنع ، واستنكار مبتدع ، ودلال ينسي الرجل عرضه ، وإغراء يوقظ الفتنة النائمة ، وقرب في تباعد ، وتباعد في قرب ، وغضب في طيّه رضاً ، ورضاً في غضونه غضب . وقامت بين القوم راقصة تكاد تكون متجردة فذهبت بالبقية من عقولهم ، وأخذت ما تركته الخمر فيهم . وزينت ،

النشوة لهذا الرّقّ قاضي حلب ، الذى يكره منى زهوى وإعجابى أن يقوم ويرقص بين تصفيق القوم ، وترديد الألحان ، وكان ينشد أبياتاً عبث السكر بأوزانها ، ولعبت بنت الحان بقوافيها . أما أنا فلم أستطع البقاء ، فاتخذت من انصراف القوم إلى لهوهم ستراً ، وخرجت أتلفت ورائى ، وأجمع من هذا الدنس أثوابى .

ذلك هو الذى يريدنى هؤلاء المستهترون على أن أفعله ، وأن أشاركهم فيه ، وإلا كنت ثقيل الظل ، شائك الجانب ، غليظ القلب فظاً . لا يا صحابى إنى خلقت من طينة غير طينتهم ، ورميت إلى غاية غير غايتهم ، وإذا كان لسانى لسان شاعر ، فإن قلبى قلب . . . ثم تردد قليلا ، فقال المخزومى : قلب أسد؟ فالتفت إليه المتنبي وقال : لا . كنت أريد كلمة أخرى ندعها الآن يا أبا الفرج . ثم أذّن العصر ، فقام من حضر للصلاة ، وبقى المتنبي جالساً فى متكئه يقلب فى ديوان أبى تمام ، وكان على منضدة أمامه ، وكان يرسل إليه لمحات خاطفة ، فمرة يبتسم احتقاراً ، وأخرى يهز رأسه استحساناً ، وثالثة يمد شفتيه فى استنكار وسخط .

فلما قضيت الصلاة حيّا القوم أبا الطيب وانصرفوا ، وبقى ابن سعيد قلقاً ينفخ من الهم والغضب ، فالتفت إليه أبو الطيب سائلاً :

ـــ مالى أراك قلقاً يا أبا الحسن ؟

ـــ لا شىء يا أخى ، إلا أنى سمعت اليوم حديثاً أطار

صوّابى ، وضاعف من همّى وحزنى . فلقد علمت فى هذا الصباح أن القوم يأتمرون بك ، وأنهم لم يتركوا فى كنانتهم سهماً مسموماً حتى رموك به . فخذ حِذْرك أبا الطيب ، إنى لك من الناصحين .

— القوم يأتمرون بى ؟ ! حيّاك الله وبياك يا أبا الحسن ! ولكن ليس هذا بنبأ جديد . قل لهم ما قلته لغيرهم :

إنى وإن لمت حاسدىّ فما أنكر أنى عقوبةٌ لهمُ
وكيف لا يُحسدُ امرؤٌ علَم له على كلّ هامة قدمُ

— إن الأمر يا سيدى جدٌ وما هو بالهزل ، وإن أبا فراس وشيعته أعظم من أن يستهان بأمرهم ، أو يفضّ الحديث عنهم ببيتين من الشعر ، إنهم يكيدون لك ، وينصبون لك الحبائل ، ويمشون لك الضراء ، فحاربهم بسيوفهم ، واقتلهم بالسمّ الذى أعدوه لك . إن الفلسفة التى تسير بهديها ، والتى تستريح إليها نفسك ، وتهدأ بها هواجسك ، لن تغنى فى هذا الزمان فتيلاً . إننا يا سيدى نعيش فى جوّ قاتم بالدسائس ، مختنق بالفتن . ومن خطل الرأى أن يخطو المرء فى أرض تزدحم بالأفاعى وهو لا يحمل ترياقاً ، أو يسير فى مَسْبعة وهو لا يستصحب الحذر . لقد أزعج القوم إباؤك وشممك ، وتلك المشية المزهوّة التى تكاد تشم فيها عظمة الملك من أعطافك ، وتلك النظرات المتسامية التى تعدّ من تحتها من الناس ذباباً أو نمالا . إن العظمة يا أبا الطيب لا يراها الناس إلاّ تحت رداء من التواضع . والنبل معنى تدركه العقول ولا تبصره العيون . خض مع الناس فيما

يخوضون ، وخذهم كما يكونون ، واحتل إذا وجدت الاحتيال مطية لمآربك ، وبَشّ في وجوه قوم وقلبك يلعنهم .

— لا . لا . يا أبا الحسن . ذلك عهد ودّعته منذ حين ، فإن ذا الوجهين لا يكون عند الله وجيهاً . ولن أفسد خلقى لفساد أخلاق الناس ، ولن أضيّع مروءتى بين ملق دنىء ، وخداع وَنِىء . أنت تريدنى على أن أقذف بأخلاقى ورجولتى فى التراب لأرتدى ثوباً من الرياء مخرّقاً . ولماذا ؟ لأن طائفة من السادرين الأثمة الذين أعيش بينهم ، تؤلمهم رؤية الفضيلة ، ويؤذيهم أن يعتزّ المرء بنفسه . لا يا أبا الحسن عرّج على حديث آخر .

— ليس لى اليوم حديث إلاّ هذا ، فإن لى فيك اعتقاداً أرسخ من الجبال . أعتقد أنك الشاعر الذى بعث على رأس هذا القرن لينهض بالعرب ، وليغنى بمآثر العرب ، وليعيد مجد دولة العرب . ولن أجد لك ميداناً بين دويلات الإسلام أوسع من حلب ، ولا مَلِكاً يساير رنين شعرك صليل سيوفه إلاّ سيف الدولة . إنه الملك الفذّ الذى يقارع الروم ، وهم يتوثبون على أطراف مملكته بعُدَدِهم وعديدهم فى صولة وقوة وشهوة للانتقام . والحرب يا أبا الطيب لن تسير غازية ، فاتحة ، مظفّرة إلا على ألحان من الشعر الحماسىّ الذى يُلهب الوجدان ، ويقذف الرعب فى قلب الجبان . ولن يكون هذا الشعر إلاّ شعرك يا ابن الحسين ، ولن تكون تلك النغمات السماوية إلا من مزهرك المرنان . أنت لست مِلك نفسك يا رجل . أنت ملك

العرب جميعاً ، أنت هبة الزمان الجديد الذى جاء ليصلح بك
ما أفسده الزمان القديم . وإذا هجرت حاضرة سيف الدولة
فأين تذهب؟قد يُخَيَّل إليك أن تذهب إلى العراق، ويا ويلى
من العراق وتَعْسى ! ! إنه الآن تحت سيطرة طغاة من الديلم ،
وخليفتنا المطيع لله — فك الله أسره — يعيش الآن
فى قفص يسمونه عرشاً ، بعد أن خلع الديلم ابن عمه المستكفى
بالله وسملوا عينيه . وهو اليوم يجلس على سرير الملك كما يجلس
القرد المذعور الذى تذهب عيناه يميناً وشمالاً أينما ذهبت عصا
صاحبه . هذه هى بغداد التى كانت زينة الدنيا وبهجة الدهور ،
أيام الرشيد والمأمون . وهناك الوزير المهلبىّ ، وقد جمع حوله
حثالة الكتّاب ، وشذّاذ الشعراء الذين يرسلهم على أعدائه
كما ترسل الكلاب المضرّاة فلا يتركون أديماً صحيحاً ، ولا عرضاً
سليماً . هل تستطيع أن تعيش فى هذا الجوّ يا أبا الطيب ؟ وفى
أىّ شىء تقول الشعر هناك ؟ فى الكأس والطاس والغوانى والغلمان
نعم ليس هناك مجال إلا هذا المجال القذر الدنس ، فليس هناك غزو
ولا فتح ، حتى لقد صدئت سيوفهم فى أغمادها ، إن كان لا يزال فى
أغمادهم سيوف . ومن تظنّ سيكون من نظرائك وأندادك ؟
سيكون من هؤلاء ابن الحجاج الوقح ، وابن سكرة المفحش ،
وابن لنكك السبّاب . لا يا سيدى ، إن رضيت بهذا فلن
أرضاه لك . وقد يجول بخاطرك أن تذهب إلى مصر ، وإنى
أربأ بك أن تفعل هذا ، وأن تجعل من نفسك عبداً للعبد

الأسود . ويا لَضيعة الشعر ، ويالَضيعة الأدب إذا انحدرا إلى هذه الهاوية ! قد تقول أذهب إلى فارس ، ولكنّ ثقتى بك تأبى علىّ أن أتخيل أن مثلك يذهب هذا المذهب ، ويبيع عروبته وتاريخه بثمن بخس ، دراهم معدودات . أنصت إلىّ يا أبا الطيب ، ليس لنبوغك مجال إلا فى حلب ، وليس لعقود شعرك مكان أجمل ولا أشرف من جيد سيف الدولة . فأقم فى ذُراه ، واعتصم برضاه ، وجامل من حوله ، وكن فسيح الصدر ، واسع الحيلة ، واترك خلق الله فى ملك الله .

— إنى أحبّ سيف الدولة يا أبا الحسن ، أحبّ فيه شجاعته وإقدامه وكرم سجيته وصبره على الجهاد ، وأودّ أن أعيش فى كنفه ، وأن أدفن فى الأرض التى طهّرها سيفه من رجس الغزاة المغيرين ، ولكن فى حاشيته عصابة اتخذت من أبى فراس زعيماً ، بغّضت إلىّ حلب وملكها ، وحبّبت إلىّ الذهاب ثانيةً إلى الصحراء ، حيث كنت أعيش فى طليعة شبابى مع جفاة الأعراب ، فما رأيت منهم إلا نجدة وعزّة وأنفة عن كلّ ما يَشين .

— إن أبا فراس هذا هو الذى جئت لأحدثك فى شأنه اليوم . فقد ملأ قلب سيف الدولة غيظاً منك وحقداً عليك ، وذكر له من تيهك وجبريّتك وامتهانك لشأنه ما دفع سيف الدولة إلى أن يعقد العزم على سدّ بابه دونك . رآنى اليوم مع نجا وهو يقرأ علىّ بائيتك الأخيرة فصاح فينا غاضباً ، وأخذ

يرميك بكل قارعة ، ويصمك بكل قاصمة ، وينذر ويتوعد .
لذلك هرولت إليك مسرعاً حتى نرد كيد القوم فى نحرهم ،
ونظفر برضا سيف الدولة دونهم .

— وكيف نظفر برضاه وهو على ما وصفت ؟

— إن سيف الدولة قُلّب دوّار ، يكون الصَبا ويكون
الدّبور ، فهو فى لحظة سيل هدّار العباب ، وفى أخرى صفحة
غدير سَجْسج يتعثّر فوقه النسيم . هو الآن غضبان ولكنه إذا
سكت عنه الغضب عاد طفلاً غريراً يسهل اجتذابه ، ويسلس
قياده .

— دعنى أرحل عنه بسلام يا أبا الحسن ، فإن النفوس إذا
تنافرت قلّ أن تعود إلى ودادها .

— هذا كلامكم معشر الشعراء ، ولكن النفوس تتنافر
ثم تتعانق ، ولا يصفو الود إلا بعد أن يخلص من الكدر .

— من الذى يخلّص ودّ سيف الدولة من هذا الكدر ؟

— أخته خَوْلة . فإنها مفتونة بشعرك ، كثيرة الإعجاب
بك . وهى ترى أن خروجك من مملكة أخيها لا يقلّ عن
دخول الروم فيها . وسيف الدولة مشغوف بها حباً ، لا يردّ لها
كلمة ولا يخيّب رجاء . فلو ألحّت عليه فى أمرك ، لأحبطت كيد
القوم ، وأعادتك إلى ما كنت فيه من المنزلة والكرامة .

— افعل ما تشاء يا أبا الحسن . ولو خُيّرتُ ما اخترت .

— إنى سأختار لك . فلا يكن فى صدرك حرَج . وسأمرّ

على دارك غداً بالخبر اليقين .

فلما جاء الغد أسرع أبو الحسن بن سعيد إلى دار المتنبى ، فلم يجده ورأى ابنه مُحَسَّداً فقال له : قل لأبيك يا محسد : إنّ الأمير يبلغه تحيته ورضاه ، ويودّ أن يقابله فى قاعة الرسل فى صبيحة غد ، ليستمع لإنشاد القصيدة الجديدة . وقل له إنّ الجمع سيكون حاشداً ، عم مساءً يا محسد . ثم بلِّغه عنى ألا ينسى قوله :

ومِنْ نكدِ الدنيا على الحرِّ أن يرى
عدواً له ما من صداقتِه بُدّ

صراع

عاد المتنبى إلى داره حزيناً مثقلاً بالهموم والأوجال ، يهزّ رأسه صامتاً مطرقاً . فابتدره محسّد وألقى إليه رسالة أبى الحسن لم يخرِم منها حرفاً . فالتفت إليه أبوه فى تثاقل وقال :

ـــ إذاً سيكون الموعد غداً ؟

ـــ نعم يا أبى وهو يقول إن الجمع سيكون حاشداً .

ـــ إنه يوم الفصل يا محسّد ، وسيعلمون غداً من السّباق المبرز .

تمرّستُ بالآفات حتى تركتُها
تقولُ أمات الموت ، أم ذُعر الذُعر ؟

وأقبل مسعود فقال : إن العشاء قد أعدّ يا سيدى .

— ليس لى فى الطعام من أرب الليلة يا مسعود . أوقد الشموع فى حجرة نومى ، وأعد بجانبها شموعاً أخرى ، فقد يطول بى السهاد فى هذه الليلة الليلاء ؛ وأحضر أقلاماً وأوراقاً ودواة بجانب سريرى . أسرع يا مسعود ، فإن مجد سيدك الليلة فى ميزان القدر . فأسرع العبد ينجز ما أمر به ، وتخفف المتنبى من بعض أثوابه ، وهو يتمتم : غداً سيرون ! غداً سيكون لى معهم ومع أميرهم شأن أى شأن ! غداً يعلمون أنى كالحجاج ابن يوسف لا يقعقع لى بالشنان ، ولا يغمز جانبى كتغماز التين ، وغداً يستيقنون أن الشعر إذا تنفست به نفس جريئة ، كان ملكاً على الملوك، وأميراً على الأمراء . من هؤلاء ليت شعرى ومن آباؤهم ؟ كان آباؤهم زعماء طائفة من فتاكى العرب ، أغاروا على أطراف الخلافة ، وهى تترنح للسقوط ، فمزقوا أشلاءها ، واقتطعوا لأنفسهم منها طرفاً ، وأصبحوا فى طرفة عين ملوكاً لهم عرش وصولجان ، وجند وسلطان . ولم لا أوطد ملكاً كما وطدوا ؟ وأشيد مجداً مغتصباً كما شيدوا، ما دام الأمر للقوة ، والحكم لأطراف الأسنة ؟ ثم أطرق حزيناً وهز رأسه فى ألم وحسرة وقال : ولكن هؤلاء لهم عشيرة وعصبة ، ولهم أعوان وأحلاف فى القبائل ، ولهم فى الرياسة مجد قديم . أما أنا فقد

أظمتنى الدنيا فلما جئتها مستسقياً مطرت على مصائبا

ثم زفر وقال : نعم يا أبا الطيب لقد قسى عليك القدر ، فأنشأك فى أسرة خاملة النسب ، تجاهد بجدع الأنف أن

ينساها الناس ، وأن ينسوا اتصالك بها . وليس لك غير عزمك وسيفك وشعرك من عشير أو قبيل . فأين أنت من المطالب العظام والمقاصد الجسام؟ نعم. لقد قسا عليك القدر، فخلق لك نفساً شامخةً توّاقةً غلاّبةً طماحةً إلى الملك . ولم يخلق لك من آلات العظمة والملك ما يصل بك إلى أدنى هذه الغايات . هذا هو دأب القدر دائماً ، يضع السيف فى يد من لا يستطيع حمله ، ويهب المال لمن لا يحسن تدبيره ، ويكيل الحمد والثناء لمن لا يفهم معنى الحمد والثناء !

جلس المتنبي أمام منضدته ، ومد يده إلى القلم وأطرق طويلاً يفكر فى ابتداء القصيدة . فجال بخاطره أن يقول :

نقل الواشى حديثاً فكذبْ كن مُجيرى منه يا خيرَ العرب

ولكنه هزّ رأسه هزاً عنيفاً وقال : لا . لا . هذا مطلع يدلّ على ضعف نفسى ، واهتمامى بالوشاة . ثم إن تسمية سيف الدولة فى أول القصيدة بخير العرب إغراق فاضح ، وسرف فى المديح لا يصح أن يعطَى فى جرعة واحدة . وعدل عن هذا المطلع ، وأخذ يفكر فى مطلع آخر فعرض له أن يقول :

غال بعضَ الحبّ عذلُ العاذل

ومضى الباقى بمطل الماطل

غير أنه مدّ شفته السفلى استنكاراً ، وقال : لا . لن يصلح هذا مطلعاً فإن فيه إيغالاً فى القطيعة ، ومصارحةً بالجفاء . وإذا اغتال العذل بعض الحب ، وذهب مطل الحبيب

بباقيه ، فماذا يبقى منه للرجل ؟ وماذا أرجو عنده بعد أن كاشفته بانقطاع حبل الود بيننا ؟ ثم فكر قليلا وصاح فى اهتمام : لقد وجدت المطلع . لقد وجدته . هذا هو :

واحرَّ قلباه ممّن قلبُه شَبِمُ ومَن بجسمي وحالى عنده سَقَمُ

ثم وقف وأخذ يجول فى أنحاء الحجرة ، وهو يهمهم ويزمجر زمجرة النمر الجريح . وكلما حام حوله طائر الشعر أطرق وزمزم حتى يلتقطه فيسرع إلى أوراقه فيدوّن البيت أو البيتين . وكان من يراه وهو يذرع أرض الحجرة شاخص العينين ، يلوّح بذراعيه أحياناً ، ويضرب بقدميه الأرض أحياناً ، ويتحدث إلى الشموع والحيطان أحياناً ، يظنه مجنوناً ذهب عقله وطار لبّه .

فرغ المتنبي من قصيدته قبل أن تظهر خيوط الصباح ، فطوى أوراقه وألقى بنفسه على سريره ، ولكن هيهات لمثله أن ينام ! فلما شاع نور الشمس فى الأفق ، تناول نزراً من الطعام ، ثم ارتدى ملابسه ، وأمر مسعوداً بإعداد جواده . ولما همّ بالركوب رأى أبا الحسن بن سعيد فى انتظاره ، فابتدره ابن سعيد :

ــ هل أتممت القصيدة ؟

ــ نعم أتممت قاصمة الظهر ، وقارعة الأبد .

ــ أرجو ألا تقسو فيها على أعدائك يا أبا الطيب .

ــ ليكن ما يكون .

ولما بلغا قصر سيف الدولة ، نزل أبو الطيب عن جواده

فتلقّاه نجا فى بشر وترحاب ، وهمس فى أذنه قائلا : اليوم يومك يا أبا الطيب . فإن أعداءك هنا جميعاً ، وقد جمعوا مكرهم ، وألقوا حبالهم وعصيّهم . فهز المتنبي كتفه فى تيه وقال : إن هؤلاء لا يهزون شعرة من مفرقى :

أنا الذى بيّن الإله به الأقـ ... ـدارَ والمرءُ حيثما جعله
جوهرةٌ تفرح الشـرافُ به ... وغصّة لا تُسيغها السفله

ودخل المتنبي قاعة الرسل ، فرأى سيف الدولة فى صدر الإيوان ، وحوله الوزراء والفقهاء ورجال العلم والأدب ، وكان بالمجلس عدد عديد من أعداء المتنبي بينهم الزاهى والنامى وأبو الفرج السامرّى . وكان على رأس هؤلاء أبو فراس وأبو العشائر ، وقد أخذا ينظران ذات اليمين وذات الشمال فى قلق واضطراب .

دخل المتنبي فسلّم على الأمير مطأطئ الرأس حزيناً ، وردّ سيف الدولة تحيته مدّلاً عابساً ، وسكت الجمع ، وتحفّز أعداء أبى الطيب للوثوب ، فشرع ينشد حتى إذا بلغ قوله :

مالى أكتّم حباً قد برى جسدى ... وتدّعى حبّ سيف الدولة الأمم ؟

صاح به أبو الفرج السامرّى : ويلك يا دعىّ كنْده . لقد هجوت الأمير ، لأنك تزعم أن الناس جميعاً لا يحبونه إلا ادّعاء ، وأنك وحدك الذى يحبه حباً صادقاً ، وهل هذا إلا هجو صراح ؟ فانصرف عنه أبو الطيب غير مكترث ، واستمر فى الإنشاد فلما قال :

يا أعدل الناس إلا في معاملتي
فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

قال أبو فراس : قد مسخت قول دعبل :

ولست أرجو انتصافاً منك ما ذرفت
عيني دموعاً ، وأنت الخصم والحكم

فقال المتنبي وهو ينظر إلى الأمير ويشير إلى أبي فراس :

أعيــذها نظراتٍ منــك صادقةً
أن تحسَبَ الشحم فيمن شحمُه ورم

فعلم أبو فراس أنه يعنيه ، فقال : ومن أنت يا ابن عبدان حتى تأخذ أعراض أهل الأمير في مجلسه ؟ فواصل المتنبي إنشاده ولم يلق إليه أذناً إلى أن قال :

سيعلم الجمعُ ممن ضم مجلسُنا   بأنني خيرُ من تَسعَى به قدم
أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبي   وأسمعت كلماتي مَن به صمم

فزاد ذلك في غيظ أبي فراس وقال : قد سرقت هذا من عمرو بن عروة بن العبد إذ يقول :

أوضحتُ من طُرُق الآداب ما اشتكلتْ
دهــراً وأظهــرتِ إغــراباً وإبــداعاً

حتى فتحت بإعجاز خصصْتُ به
للعمى والصمّ أبصــاراً وأسماعا

ولما انتهى إلى قوله :

الخيلُ والليـلُ والبيداء تعرفني
والسيفُ والرمحُ والقرطاسُ والقلمُ

صاح أبو فراس : وماذا أبقيتَ للأمير إذا وصفت نفسك بكل هذا ؟ تمدح الأمير وتتبجح بوصف نفسك بما تسرقه من كلام غيرك ؟ أما سرقت هذا من الهيثم بن الأسود النخعي ؟

أنا ابنِ الفلا والطعنِ والضرب والسرى
وجـردِ المذاكي والقنـا والقواضب

فقال المتنبي :

وما انتفاع أخي الدنيا بناظره
إذا استوت عنده الأنوارُ والظلم

فقال أبو فراس : وهذا أيضاً سرقته من قول العجليّ :

إذا لم أميِّز بين نورٍ وظلمة بعينيّ فالعينان زورٌ وباطلُ

ومن قول محمد بن أحمد المكيّ :

إذا المرء لم يُدرك بعينيه ما يرَى
فما الفرقُ بين العمى والبصراء ؟

وهنا ضَجر سيف الدلة من كثرة مباهاة المتنبي بنفسه ، وكثرة دعاويه ، فمد يده إلى دواة كانت أمامه ، فضرب بها المتنبي فسال المداد على ثيابه . ولكن المتنبي وقف شامخ الرأس كأن لم يمس بأذى ، وشرع يقول :

إن كان سرّكمُ ماقال حاسدُنا فما لجرحٍ إذا أرضاكمُ ألم

فاهتز سيف الدولة للبيت ، وحسن عنده موقعه ، وقام

مهرولاً نحو المتنبي يعانقه ، ويقبل رأسه ، وأخذ يشده من ذراعه حتى أجلسه بجانبه . فلما أتم أبو الطيب القصيدة وهو جالس ، أجازه بألف دينار ، ثم أردفها بألف أخرى ، استعادة لمودته وإعلاء لمنزلته . والناس مع الزمان ، والإقبال يجلب الإقبال ، فما كاد يرى من بالمجلس فعل سيف الدولة حتى أقبلوا على المتنبي يكيلون له المديح ، ويخلعون عليه من الثناء حللا ، ويشيدون بعبقريته ، ويحمدون فيه الإباء والشمم والجرأة على ممدوحه ، وأنه يرفع فنه إلى قمة دونها منازل الملوك ، ويضع نفسه حيث يجب أن تكون . وقال له أبو الحصين الرقي وهو يشد على يده : حياك الله يا أبا الطيب ! لقد كنت اليوم الفارس المعلم فلم تدع مصالا لصائل ، ولقد كان نصرك مبيناً مؤزراً ، فاحرص على هذا الانتصار يا أبا محسد ، فقد يكبو الجواد وقد قارب القصب ! فرد عليه المتنبي بكلمات ضاعت معانيها بين صيحات المعجبين . أما أبو فراس وأبو العشائر وأنصارهما من آل حمدان فقد حبست الهزيمة ألسنتهم ، وأكل الغيظ قلوبهم فتسللوا من المجلس ، وفي أعينهم لمحات الغضب والحقد والعزم على الانتقام ، لما نالهم من احتقار المتنبي وتعريضه بهم في قصيدته .

وما كاد أبو الطيب بعد خروجه من القصر يصل إلى ظاهر المدينة ، حتى أحاط به غلمان أبي العشائر ونفوسهم متعطشة إلى دمه ، فرماه أحدهم بسهم وهو يقول : خذه وأنا غلام أبي

العشائر! فحاد عنه السهم، ووكز أبو الطيب جواده وهو يقول:

ومنتسبٍ عندى إلى مَن أحبّه
وللنبل حولى من يديه حفيفُ

فهيّج من شوقى وما من مَذَلّة
حننت ، ولكنّ الكريمَ ألوف

وكلّ ودادٍ لا يدوم على الأذى
دوامَ ودادى للحسين ضعيف

فإن يكن الفعل الذى ساء واحداً
فأفعـاله اللائى سررن ألوف

ونفسى له ، نفسى الفداء لنفسه
ولـكن بعض المالـكين عنيف

فإن كان يبغى قتلها يلك قاتلا
بكفيه ، فالقتل الشريفُ شريف

وبلغ المتنبي داره وقد نال منه الجهد ، واضطرب منه العصب ، فارتمى فوق سريره يلهث ويردد أنفاسه . وقد جالت في نفسه خواطر متباينة ، وهجمت عليه ظنون متناقضة . هؤلاء الغلمة الذين طلبوا دمه إنما هم عن قوس ساداتهم رموا ، وبأيديهم راشوا السهام . نعم إنه انتصر عليهم عند سيف الدولة اليوم ولكن هل يدوم هذا النصر ، وحوله هؤلاء الذئاب ، وهو يخطو فوق أرض كثيرة المزالق والأخاديد ؟ إنه انتصر حقاً ولكن هذا النصر قد يكون حافزاً لأعدائه على الإسراع بالكيد له ، وإحكام

الخطة لدفعه فى الهاوية . إنه انتصار يجر فى ذيله الهزيمة . انتصار المصادفة الذى يعقبه انهزام تنصب شباكه الدسائس المحكمة ، والمكر الخبيث ، والغلمان الفتاكون الذين يرسلون سهامهم فى غبش الظلام . وهل يستطيع أن يركن إلى سيف الدولة أو يثق بنصرته ، وهو كما قال أبو الحسن رجل من هواء لا يدوم على حال . يملكه الغضب حيناً فيرتد شيطاناً رجيماً ، ويجتذبه الرضا بخيط من خيوط العنكبوت فيصبح ملكاً كريماً . وكيف يعيش شاعر غَرِد فى هذا الجو القلق المضطرب ؟ إنى أوثر أن أعيش فى عرين الأسد ، وأرقد بين الحيات السود ، وأنام فى مجارى السيول ، على أن أعيش بين سموم هذه الأحقاد يوماً واحداً . غداً أرحل إلى أى مكان على رغم يقينى من أنى لن أجد لسيف الدولة مثيلا بين الأمراء ، ولكن ماذا أفعل والجنة تحف دائماً بالمكاره ، والورد لا يجنى إلا من الشوك ؟ غداً أرحل إلى دمشق ، ويفعل الله ما يشاء . يا محسد . فأسرع ابنه إلى ندائه ، ووقف يتلقى أمره ، فطلب منه أن يأمر العبيد بإعداد كل شىء للرحيل فى الغد ، ورأى أبو الطيب فى وجه ابنه سمات التردد والعجب فصاح به : أطع ما آمرك به ولا تعوّق . فقال محسد فى تلعثم :

— إنى فى الحق فى حيرة من هذا الأمر المفاجئ . لقد كان فوزك اليوم على أعدائك فوزاً حاسماً ، وكان إقبال الأمير عليك واعترافه بسمو منزلتك حادثاً فذاً لم يسجل له الدهر مثيلا فى تاريخ الملوك والشعراء . ثم بعد هذا يخطر لك أن ترحل عن

هذا الجاه العريض ، والمرتبة التى تتقطع دونها أعناق الشعراء !

— مر العبيد أن يعدوا كل شىء ، ولا تخاطبنى فى شأن الأمير . اذهب .

فخرج محسد متثاقلاً والدهش يملك عليه لبه ، فأمر مسعوداً بالاستعداد للرحيل .

وما كاد يلمع أول شعاع للصباح حتى وصل فارس يلهث جواده إلى دار أبى الطيب ، وطلب لقاءه فأدخل عليه. فقال الفارس :

— إنى خادم سيدتى خَوْلة أخت الأمير ، وقد بعثنى برسالة إليك .

— سيدتى خولة ؟ تبعث إلى برسالة ؟ أين هى ؟

— ها هى ذى يا سيدى . ومد يده فى كمه فأخرج منه كيساً من الحرير الأخضر خيطت جوانبه حول الرسالة ، ففض المتنبي الكيس وأخرج الرسالة فكان فيها :

من خولة بنت عبد الله بن حمدان إلى أبى الطيب أحمد ابن الحسين. أما بعد ، فقد كانت قصيدتك التى أنشدتها اليوم آية بينة من آيات البيان ، جديرة بأن تعلق على أستار الزمان ، وأن يردد قوافيها الملوان . قرأها على الليلة أبو الحسن بن سعيد وشرح لى ما حدث من مقاطعة أبى فراس لك ، وتحديه إياك ، وما كان من انتصارك عليه . وما كاد يتم سرورنا حتى فوجئنا بتعرض غلمان أبى العشائر لك فى الطريق ، فغضب أخى أشد الغضب وبعث فى طلب أبى العشائر ، فلما جاء تلقاه ساخطاً

لاعناً ، واعتذر أبو العشائر وأطال الاعتذار ، وأقسم إن شيئاً من ذلك لم يكن بإشارته ولا بعلمه . ولم يخرج من لدنه حتى كتب أمراً بنفي هؤلاء الغلمان جميعاً إلى الموصل ؛ وقد جال بنفسي أن هذا الحادث قد يحفزك إلى الرحيل عنا ؛ بعد أن كنت متردداً . فأستحلفك بالله وبمجد العرب وبما تكنُّ لأخى من مودة ألا تفعل . لا ترحل يا أبا الطيب فإن الدولة فى أشد الحاجة إليك . أنت قلبها النابض ، وزندها المفتول ، وجيشها الذى لا يصاول . لا ترحل يا أبا الطيب واستمع لرجاء فتاة تقدر أدبك وفضلك . إن الدولة من غير أن يتردد فيها نغم شعرك كنانة بلا سهام ، ودوحة بلا بلابل ، والسلام عليك فى الخالدين .

قرأ المتنبى الرسالة ثم أطرق واجماً مفكراً ينكت الأرض بعصاً كانت فى يده . ثم رفع رأسه وكأنما أفاق من غمّة فقال للرسول : قبِّل يد مولاتى وقل لها : إن العبد لا يأبق ما أحسن به سيده . وإن طائرها سيظل رفّافاً غرداً ما بعد عنه حفيف السهام ، وإن الشعر لن يعصى أمراً لسيدة نساء « تغلب » ولا يرد كلمة مرت بأطهر شفتين ، ونطق بها أصدق لسان .

وبقى المتنبى فى كنف سيف الدولة بعد ذلك قرابة خمس سنين ، بين سخط ورضاً وعتب وإعتاب ، وتجن وإدلال . وحضر بعض مواقع الروم مع سيف الدولة فأجاد وصفها ، وشدا ببطولة رجالها ، فملأ الدنيا ، وشغل الناس ، وطار شعره فى الآفاق وردَّدته الأفواه فى كل مكان :

فسار به من لا يسير مشمرا وغنى به من لا يغنى مغردا

ولما طال به المقام كثر حساده ، ومل سيف الدولة تيهه وكبرياءه وضنه عليه بالمديح ، فازدادت بينهم الجفوة ، ولم يجد أعداء المتنبي باباً للنكاية به إلا ولجوه . وحينما ضاق المتنبي بأمرهم فكر فى الرحيل ، وكأنه كان ينظر بين الغيب حقاً حينما قال فى آخر قصيدة أنشدها بين يدى سيف الدولة :

ولا تبال بشعر بعد شاعره

قد أفسِد القول حتى أحمِد الصمم

وبلغ سخطه على سيف الدولة غايته حينما حضر مجلسه مرة ، وكان به أبو الطيب اللغوى وأبو عبد الله بن خالوية النحوى فجاء فى عرض الحديث بيت المتنبي :

لقد تصبرتُ حتى لاتَ مُصطبرٍ فاليومَ أقحمُ حتى لاتَ مقتحَمِ

فقال ابن خالوية : فى هذا البيت لحن شنيع ، لأن «لات» لا تجرّ ما بعدها ، إذ ليست هى من حروف الجر . فقال أبو الطيب اللغوى : إن بعض العرب يجر الاسم بعدها ، فأنكر عليه ابن خالويه ذلك ، فنهره المتنبي فى غضب وقال : اسكت فما أنت إلا أعجمى لا يفهم أساليب اللغة ، فإن من العرب من يجر الاسم بعد « لات » ، قال شاعرهم :

طلبوا صلحنا ولات أوان فأجبنا أنْ ليس حين بقاء

فغضب ابن خالويه ، وأخرج من كمه مفتاحاً من حديد ، فصكّ به المتنبي فى وجهه ، فأسال دمه . فنظر أبو الطيب حوله

فلم ير من سيف الدولة استنكاراً ولا أسفاً ، فخرج من عنده كالبعير الصائل، وقد عزم ألاّ يكون ثالث الأذليْن غيْر الحيّ ووتده ، وجعل يردد :

فلا عبرتْ بي ساعةٌ لا تُعزني
ولا صحبتني مهجة تقبلُ الظلْما

رحيل

لزم المتنبي داره أياماً يفكر ويدبّر ، ويبحث عن طريق للفرار من حلب ، وهو يعلم أن سيف الدولة سيسدّ دونه المنافذ ويسأل عنه الفلوات ، وأنه سيرسل جواسيسه فى كل مكان يتعقبون خطواته ، ويترسمون آثاره . فكر أولاً فى الذهاب إلى حمص ولكنه رأى أنها من أملاك سيف الدولة ، وأن الفرار من حلب إليها ليس إلا كما ينتقل الطائر الحبيس فى قفصه من ركن إلى ركن . ثم فكر فى أن يصارح سيف الدولة بأن ثواءه طال فى حلب وأنه يعتزم الرحيل عنها ، وأن ينشئ قصيدة فريدة فى مدحه وتوديعه ، ولكنه رأى بعد طول التفكير وتقليب الرأى أن سيف الدولة لم يصل به البله إلى أن يطلق من يديه شاعراً تتنافس فى احتيازه ملوك الأرض . يرسلهُ من يديه ليغنى بمجد منافسيه ويطلق لسانه المرّ بهجائه والإزراء بملكه . إنه إن صارح سيف الدولة بهذا فليس لذلك من عاقبة إلا أن يعتقله وينكل به ، ويقضى على آماله الجسام .

فكر المتنبي طويلاً ودبّر طويلاً ، حتى هداه التفكير إلى أن يتحيّن غفلة من الأمير ويفرّ إلى دمشق . فأظهر الود لسيف الدولة ، وأكثر من زيارته ، ثم التمس منه أن يأذن له بالسفر إلى إقطاعه « بمعرّة النعمان » فأذن له . وما كاد يظفر أبو الطيب بهذا الإذن حتى أسرع إلى داره ، وكان قد أعدّ عدته للرحيل منذ أيام ، فدعا ابنه محسّداً وعبده مسعوداً وأنبأهما بأن يحملا إلى دمشق فى خفية وحذر ما خف من متاعه على ظهور الجياد ، وأنه سيلحق بهما إذا خُفِّضت عنه العيون ، ونام عنه الرقباء . فامتثلا الأمر ، ولم تمض ساعات حتى كانا فى طريق دمشق ينهبان الأرض فى صمت ورعب ووجل .

أما أبو الطيب فانتظر إلى الهزيع الأخير من الليل ، ثم خرج متسللاً ينظر فى الظلام ، فلا يرى إلا أشباح الظلام ، ويصغى فلا يسمع إلا دقات قلبه الواجف الحزين . حتى إذا وثق أن عيناً لا تنظر ، وأن أذناً لا تسمع ، انطلق كما ينطلق السهم ، وانقضّ كما ينقضّ القدر المحتوم . ولفه الليل كأنه طيف نائم ، أو خيال شاعر ، أو كما يقول :

وكنت إذا يممت أرضاً بعيدة سريتُ فكنت السرَّ والليل كاتمه

ولم يمتّع به النهار حتى جاوز أملاك سيف الدولة ، فاطمأنت نفسه قليلاً . ولكن الفكر عاوده ، والأمل الحائر ساوره : إنه قادم إلى دمشق . ماذا يفعل بها ؟ هل هى خاتمة المطاف ؟ هل انتهى به الطموح إلى أن يلقى بنبوغه فى مدينة يحكمها رجل من

قبل كافور؟ إنه أسمى منزلة وأعلى كعباً من أن يخص بمدحه خليفة أو ملكا . فهل ينتهي به الأمر إلى أن يكون ذيلا فى حاشية وال ليس فى العير ولا فى النفير؟ إنه كان في طليعة أمره يمدح أمثال هذا الوالى ومن هم دونه . ولكن هيهات! هيهات! لقد تغيرت الحال وتبدّل الأمر ، وأصبح لا يرجو المال وقد نال منه كثيراً . ولكنه يطلب الآن ما هو أعظم من المال ، وما هو أبقى من المال . ماذا يعمل فى دمشق؟ سؤال لم يستطع عنه جواباً بعد أن ردده وردده . حتى إذا يئس ، ألقى لفرسه العنان ، وعوّل على أن يترك الليالى تلد ما تشاء من عجائب .

بلغ المتنبي دمشق ، فاتجه بجواده نحو دار أبى الحسن المشوق الشاعر ، وكانت له به صداقة على قلة أصدقاء المتنبي وخلصائه . وكان أبو الحسن يزور حلب كثيراً ، وكان مولعاً بشعر المتنبي ، كثير الإعجاب به ، حتّى سماه أدباء عصره بصاحب المتنبي . وكثيراً ما دعاه أن يزوره بدمشق ، فلم يفكر المتنبي — حينما عزم على الرحيل إلى دمشق — إلا فى أن يكون ضيفه ، حتى يبتّ فى مصيره برأى .

نزل المتنبي أمام دار أبى الحسن ، وكانت فى سفح قاسيون ، فتلقاه صاحب الدار مرحباً ، وقد كاد الدهش يعقد لسانه ، والفرح يطير بصوابه . ثم قال :

— أهلاً بأمير الشعر وفارس البيان ، ومحيي ما درس من لغة العرب . من كان يظن أن دارى هذه ، ستظل أكبر شاعر

تتزاحم الملوك على عتبات شعره ؟ !

ـــ إن الملوك الآن لا يتزاحمون يا أبا الحسن ، ولكن الشعراء الذين أرخصوا مواهبهم ونزلوا بفنهم إلى الحضيض ، هم الذين يتزاحمون على عتبات الملوك .

ـــ هؤلاء يا سيدى ليسوا شعراء . وسيف الدولة يعرفهم واحداً واحداً ، ولا يقيم لهم وزناً إلى جانب شاعره المحلّق ، الذى ينطق بوحى الحكمة ، ويرسل الأوابد التى تعيا بأمثالها العقول

ـــ إن سيف الدولة ليس الآن كما تعهد يا أبا الحسن . إنه قد غيّرته علينا الغير .

ـــ غيرته الغير ؟ سيف الدولة ؟ أكرم ملك عربى وأعظم مقدِّر لعقول الرجال ؟ !

ـــ نعم يا أبا الحسن . وأنا الآن حرّ طليق . وكثيراً ما خطر لى أن أهجر الشعر وأستنجد بسيفى ورمحى ، لنيل مطلبى .

فوجم الممشوق ، وهز رأسه فى أسى وحزن ثم قال : إن مثلك لا يستطيع أن يهجر الشعر . إنه مزاج روحك ، وقطرات دمك . إن الطير لا تستطيع إلا أن تغرد ، والمزهر لا يستطيع إلا أن يرنم . وإذا تركت الشعر فإنه لا يتركك أو تتركك أنفاس الحياة . حدثنى أبا الطيب بما جرى بينك وبين سيف الدولة . فقصّ عليه أبو الطيب قصته ، ولوّنها بكثير من وساوس عواطفه ، وتهاويل خياله . فقال الممشوق :

ـــ وماذا عزمت أن تفعل يا ابن أخى ؟

— لم أعقد عزماً لأنى وجهت كل همى إلى الفرار من سيف الدولة أولاً . أما ما يكون بعد ذلك ، فتركته لتصاريف القدر .

— طب نفساً أبا الطيب ، فلن يكون إلا الخير .

وشاع الأمر فى المدينة ، ولغطت الأفواه بقدوم المتنبي إلى دمشق ، وأسرع الشعراء والأدباء والعلماء إلى لقائه بدار الممشوق . فكان بين زواره من أعاظم الشعراء : أحمد بن محمد الطائى ، ومن كبار العلماء : عبد الرازق الأنطاكى مقرئ أهل الشام ، وأحمد الغسانى النحوى ، وعبد الله المقرى ، وكان يحفظ خمسين ألف بيت من أشعار العرب .

وكان المتنبي على جفوته ونفرته يصطنع البشاشة لزواره ، ويتسع صدره لهذرهم . فقد عرف أن بقاءه فى دمشق معقود برضا كبار أدبائها عنه ، وتقديرهم لأدبه وخلقه .

وسمع ابن ملك اليهودى — وكان عاملاً على خراج الشام من قبل كافور — بفرار المتنبي ، فأرسل رسالة إلى مصر على جناح طائر ، يخبر فيها كافوراً بوصول المتنبي إلى دمشق فلم يمض إلا ثلاثة أيام حتى وصل إليه جواب من كافور ، يلح فيه بأن يعمل كل ما مكنته لإغراء أبى الطيب بالقدوم إلى مصر ، وأن يبذل له ما شاء من رغائب .

وحينما علم عبيد الله بن طُغج ، والى دمشق من قبل الإخشيد بمقدمه أرسل إليه أحد كبار حاشيته يدعوه إلى قصره ، ويلح فى أن ينزل فى ضيافته . فرأى المتنبي أن من الحكمة ومسا[يرة]

الأمور ، أن يلبى الدعوة شاكراً . فانتقل إلى قصر الوالى الذى بالغ فى إكرامه والحفاوة به ، والإغداق عليه .

وكان مجلس الوالى يجمع فى كل ليلة كبار القواد والعلماء والأدباء . وكان المتنبى فارس الحلبة فى هذا المجلس ، وملتقى العيون ، وموضع الإكبار ، فقال الوالى ذات ليلة موجهاً الحديث إلى أبي الطيب : لم أر أبلغ فى تصوير الظفر والانتصار من قولك فى سيف الدولة :

وكم رجـــالٍ بلا أرضٍ لكثرتهم
تركتَ جمعَهم أرضـــاً بلا رجل

فأطرق المتنبى شأن من تعزف نفسه عن أن يسمع مديحه بأذنه ، وانطلق الأدباء يبينون ما فى البيت من بديع الوصف ، ورائع الخيال . وقال الوالى :

ــ إن الذى يُمدح بهذا خليق بأن يخلّده الزمان .

وانبرى الطائى يقول : ما دام بيننا أبو الطيب ، فلن نحرم سماع مثل هذه الكلم البواقى فى رجال دولتنا . وأسرع الوالى فقال فى خبث واحتيال :

ــ هذا إذا رأى أبو الطيب فى رجالنا ما يثير شعره ، ويحفز شيطانه . إنى حضرت كثيراً من الوقائع ، وهزمت كثيراً من الجيوش ، ولكن كل ذلك ذهب فى الهواء ، لأن شاعراً مثل أبى الطيب ، لم يقل فىّ مثل هذا البيت !

وهنا اتجهت أنظار الجمع إلى المتنبى ، كأنهم يقولون بلغة

العيون : لم يبق إلا أن تسرع إلى إجابة الطلب ، فقد نثر الصائد الحب ووقع الطائر فى الشرك، فليس له من مناص . وبُهت المتنبي لهذه المفاجأة ، وتمتم بكلمات مبهمة قد يفهم منها الرضا ، وقد يفهم منها الإباء . وتقضى بعض الليل وانصرف السامرون إلى دورهم .

وانفرد المتنبي فى مثواه وقد تزاحمت عليه الهموم ، وانتابته الحيرة ، واستبد به القلق . هذا الوالى يريد أن يمدح بمثل ما مدح به سيف الدولة سيّد العرب ! يا للهول ، ويا للداهية الداهمة ! إن من سخرية القدر وأضاحيك الزمان أن يفرّ المتنبي من مدح سيف الدولة ، العربى المجاهد ، المبسوط اليد ، الرحب الفناء — ليرغم على مدح ذلك الأعجمى الحقير ، الذى لا يقاس بشسع نعل ابن حمدان ! ماذا جرى لهذا الفلك الدوار ، وماذا أصاب أعين الأقدار ، حتى تُنزل أبا الطيب هذا المنزل المهين ، وتسلُكه فى سلك صغار الشعراء الذين يمدحون كل من شموا فى يديه رائحة درهم ؟ ! لا إنه لن يهوى إلى هذا الدرك ، ولن يقذف بنفسه فى تلك الهاوية . لقد أنف من البقاء بحلب — وكان فيها رفيع المنزلة معروف المكانة — لأن ابن حمدان كان يتعالى عليه أحياناً ، وينظر إليه نظرة الأمير للشاعر . فكيف يستطيع أن يبقى بدمشق شاعراً مغموراً لوال مغمور ؟ ! لا . لا . إنه لم يخلق لأمثال هؤلاء . إنه خلق لتصغُر فى عينه العظائم ، « وليترك فى الدنيا دوياً كأنما تداول سمع المرء أنمله العشر » وماذا

هو فاعل إذاً ؟ ليس أمامه إلا أن يرحل ، وإلا أن يفر بنفسه من هذا الهوان . وإلى أين ؟ قاتل الله هذا السؤال ! إنه يفجأه دائماً حين لا يجد له جواباً . يرحل إلى بلاد الله ، وينزل حيث يجد العزة والعظمة والكرامة . . . ليس شيء أيسر من هذا .

وبينما هو فى هذا البحر المضطرب من الأفكار ، إذا عبده مسعود يدخل الحجرة فى هدوء ويقول :

ــ إن ابن ملك يطلب مقابلة سيدى .

ــ ابن ملك ؟ من ابن ملك ؟ نعم نعم . لقد تذكرت . دعه يدخل .

وكان ابن ملك قصير القامة ، نحيف الجسم ، يلوح لمن يراه أنه فى سن الأربعين أو جاوزها قليلاً . له عينان يسيل دمعهما من علّة ملازمة ، وقد احمرّت جفونهما . وأنف ضخم ، ووجه طويل تعلوه صفرة كدرة . ولحية تغزر عند الذقن ، وتخف إلى أن تنمحى فى العارضين . وكان قذر الملابس ، زرىّ البزة ، له عمامة سوداء ، أرسل منها ذؤابتين من شعره تسيلان فوق صدغية . دخل ابن ملك فسلّم على المتنبى ثم قال :

ــ لقد زهيت الشام بزيارتك يا ابن الحسين . إن صوتك الرنّان سوف يسكت أطيار غوطة دمشق ، وإن مصر وهى من أقوى دول العرب ستسير من ظفر إلى ظفر ، طروباً مهتزة بأنغام شعرك ، الذى يبعث فيها القوة والعزيمة وحب الغلب .

ــ لقد حسن ظنك بنا يا ابن ملك ، ولكننا قوم لا نقول

حتى نرى ، ولا نشيد بمكرمة أو نثني على فضل ، حتى يملى علينا فنكتب .

— هذا حق ، وهذا هو الذى يصل بشعرك إلى قرارة القلوب ، وهذا أيضاً هو الذى حفزنى إلى زيارتك الليلة . فقد أرسل إلى سيدى كافور اليوم بريداً خاصاً لأدعوك إليه ، لأنه علم بقدومك إلى دمشق ، وهو يريد أن يزين ملكه بفرائد شعرك ، وأن يسبق ملوك العرب في أن يكون بين خاصته أشعر شعراء العرب

وجم المتنبى حينما دهم بهذا الطلب ، فأخذ يتلوى فى مقعده كما يتلوى الملسوع . ثم قال وهو يتصبب عرقاً :

— أمهلنى يا ابن ملك حتى أفكر ، فإن ارتجال الفكرة فى مثل هذه الأمور قد يكون مدعاة للزلل .

— ليس هناك زلل يا أبا الطيب فى الاتصال بملك تعد دولته من أعظم دول العرب .

— دعنى الآن يا ابن ملك ، فإنى لا أحب الرأى الفطير

— إنى أعجب منك . من من الملوك تقصد بعد أن نبذت سيف الدولة ؟ إن كنت تريد بغداد ، فخذها نصيحة من مهودى يرى أن مثلك لا يستطيع الإقامة بها يوماً واحداً . وإن كنت تريد بلاد فارس ، فإنك لن تكون فيها إلا « غريب الوجه واليد واللسان » . فلم يبق إذاً إلا مصر ، ولم يبق إذاً إلا كافور ، وهو خير من يقدر الرجال . وقد يجد فيك سيدى كافور أكثر مما يجده المرء فى الشاعر ، قد يجد فيك — وهو ناقد بصير — صدة

الرأى ، وحسن التدبير ، وعلو الهمة ، فيوليك إمارة تظهر فيها فضائلك ، و يتجلّى المخبوء من مناقبك . لاتتردد يا سيدى ، إن مصر تسعد كل من دخلها : رحل إليها يوسف الصديق غلاماً مملوكا ، بثمن بخس دراهم معدودة ، فأصبح بعدقليل وزير المال ، وصاحب الأمر والنهى فى شئون الدولة ، أقبل يا أبا الطيب ولا تتردد ، فإنى أعرض عليك ثروة وعزاً وجاهاً ، وربما كنت أعرض ولاية . فانفرجت أسارير المتنبي قليلا بعد انقباضها ، وثارت فى نفسه شياطين الجشع والطموح ، ونسى العبد الأسود وما فى مدحه من ذلة ومهانة ، فى جانب ما فتح له اليهودى من أبواب المجد والسؤدد والعظمة ، التى هى حبيبة لنفسه قريبة إلى فؤاده . فرفع رأسه وتنفّس طويلا ، ثم قال :

— سأذهب أولا إلى الرملة لزيارة أميرها الحسن بن طغج ، وبعد ذلك سأرى ما يكون .

— هذا حسن . اذهب إلى الرملة يا سيدى ، فإن أميرها سيقنعك بأن مصر خير مكان يشرق فيه أدبك ، ويصدح فيه شعرك . متى ترحل إلى الرملة ؟

— بعد غد .

ورحل المتنبي إلى الرملة وأقام فى كنف الحسن بن طغج ، فأكرم وفادته ووصله فأجزل الصلة . ولم يتصدّق عليه المتنبي بعد كل هذا الإغداق ، إلا ببعض أبيات فى المديح .

وكتب كافور إلى صاحب الرملة يلح فى قدوم المتنبي ،

ولبث ابن طغج أياماً يزيّن إلى أبى الطيب الرحيل إلى مصر ، وهو يمانع وينفر كما ينفر المهر الجموح . حتى لان قياده فى نهاية الأمر ، حينما أغرته الوعود ، وحينما رأى أن الإقامة بالشام لا تستطاع . فشدّ رحاله إلى مصر فى طليعة جمادى الآخرة سنة ست وأربعين وثلاثمائة . سار إليها يبسطه الرجاء ، ويقبضه الإباء وهو يمنّى النفس ويداعب الأمل :

وحيـــد من الخلاّن فى كل مهمة
إذا عظم المطـــلوب قلّ المساعدُ

لقاء

إلى أين تذهب يا أبا الطيب ؟ سؤال كثر تواردُه على خاطر المتنبي كلما طالت عليه الطريق ، وهاجت به الذكريات . سؤال كان ينفر من أن يجيب عنه ، ويود بنزع الروح لو أنه استطاع أن يلوى عنان جواده إلى بلد آخر ، ليستريح من هذا السؤال السمج ، ومن تلك الوخزات القاتلة ، التى تهلع لها نفسه كلما ألحف هذا السؤال ، وألح . ما هذا البطر الذى أفسد عليه حياته ورنّق عيشه ؟ وما هذه الكبرياء البلهاء التى قذفت به إلى الدمار ، وما هذه الكرامة الموهومة التى حدت به إلى الذل والصغار ؟ يتكبر على سيف الدولة خير أبناء العربية ، وأشجع فرسانها ، ويأنف من الإقامة فى كنفه بين ظلال النعيم ، وفى رحاب العز والجاه العريض . ثم يتدلل فيأبى أن يمدحه إلا إذا

استجدى مديحه ، ونزل عن جبروته صاغراً ذليلا ! ثم يصول في صلف وعربدة على كل من حوله ، فيتسامى على أقارب الأمير ، وينال بهجاته كل شاعر فى قصره ، ويقذف كل عالم فى حضرته بكل قاصمة من السباب ! ثم ينتهى به هذا الجنون إلى أى شىء؟ إلى ما هو فيه الآن مما يبكى له الشامت ، ويجزع الحاسد . إلى أن يفارق الجنة ليضل فى مهاوى الجحيم . إلى أن يهدم كل مجد بناه ويقضى على كل أمل داعبه وناغاه . إلى أن يتسلق إلى الحياة من جديد ولكن فى شامخ وعر المرتقى ، كثير المزالق ، قد ينتهى إلى هباء . إلى أن يمدح ذلك العبد الحبشى الضخم المشافر ، المنتفخ البطن المتفلفل الشعر ، ويترك سادات العرب وصناديدها لا يجدون لمحامدهم ناشراً ولا لوقائعهم واصفاً . إلى أن يضع رأسه تحت قدمى هذا الزنجى الفدم ، بعد أن أنف أن يطأطئه لأعاظم الملوك . إلى أن يقول لليل الدامس أنت البدر المنير ، وللعيىّ الجاهل أنت نبراس البيان وخليفة سحبان ، وللغبىّ المغفل أنت الحكمة صوّرت فى إنسان . أهكذا تنتهى به الحال ؟ أين شهامته العربية وعزيمته العصامية ، وأين أشعاره التى كلها علو وشمم ، وشهامة وإباء ؟ هل أصبح كل ذلك رماداً ليس به بصيص نار ؟ ! وهل آضت كل هذه المناقب سراباً يحسبه الظمآن ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ؟ !

يمر كل هذا بخاطر أبى الطيب والجواد يقطع به المفاوز بين الرملة ومصر ، فيئن أنين المكلوم ، ويزفر زفير المحموم ،

ولكنه يعود فيمني نفسه بالأوهام ، ويهدّئ من ثائرتها بأضغاث الأحلام ، ويتجه نحو زاوية أخرى من زوايا التفكير فيقول :

إن الحزن على ما فات من صفات النساء . والرجل الحق من يتخذ من هفواته سلماً إلى الفوز . والدنيا فيها الخير وفيها الشر . ولكن العاقل الحكيم من يقلب الشر خيراً ، ويبسم للأيام لتخضع له الأيام. ولم لا أصل إلى العبد الأسود إذا كانت آمالى فى قبضته السوداء ؟ ولم لا أمدحه إذا كان فى مدحه ما يحقق الرجاء ؟ الولاية ! الولاية هى خاتمة آمالى ، ونهاية مطافى ولن أبالى فى طريق نيلها ببذل ماء المحيا والحياة ، وتعفير الوجه بتراب أدنى الأدنياء . ولو قيل لى : لن تكون ملكا إلا إذا مدحت الكلب ، وغازلت القرد ، لفعلت راضياً مغتبطاً . نعم إنى أبغض الأسود وأشمئز من لقياه ، وألعن الزمن الأغبر الذى ألجأنى إليه ؛ وأحنّ إلى سيف الدولة ، وأبكى على عهده الوارف الظلال . ولكن ما حيلتى ؟ وليس إلى مآربى من وسيلة إلا أن أقصد هذ الكافور ؟

ومرت بالمتنبي أيام حتى بلغ بلبيس ، وهى أول أملاك مصر فى هذا العهد ، ولشدّ ما كانت دهشته حينما رأى الزعيم عبد العزيز بن يوسف الخزاعى يترقّب مروره فى طائفة كبيرة من عشيرته . فلما قرب منه المتنبي تقدم فقبض على عنان جواده باشاً مرحباً ، وطلب إليه النزول ليستريح عنده فقبل المتنبي ، ورأى فى ضيافة عبد العزيز من الكرم ورحابة الصدر ما فرّج

عن نفسه ، وأزاح بعض أحزانها .

وجرى الحديث فى أثناء الليل عن مصر وأحوالها ، وعن كافور ووزرائه وبطانته ، ثم مال إلى ذكر حلب وإلى أخبار سيف الدولة ، فقال الخزاعى :

— أشهد إنه بطل ، وأشهد إنه من العار على ملوك العرب جميعاً ، أن يدعوه يناضل الروم وحده ، مع ما لهم من عدد وعُدة .

— الغيرة والحسد يا ابن يوسف هما اللذان أذهبا ريح الإسلام ، وأضعفا أمراءه ، ومن عجائب القدر أن كثيراً ممن يقدرون فى هذه الأيام لا يملكون !

— ولكن سيف الدولة من القليلين الذين يقدرون ويملكون لقد كنا نتلقّف ما يحمله إلينا البريد من قصائدك فى وصف مواقعه ، ولقد كانت والله عجباً من العجب ، وسحراً من السحر . لم تركته يا أبا الطيب ؟

— ذلك حديث طويل يا ابن يوسف . ومن الخير أن يترك الجرح حتى يندمل .

ففطن عبد العزيز إلى أن المتنبى يتألم لهذه الذكرى ، فانصرف عن الحديث فيها .

وبزغت الشمس ، ورحل المتنبى بعد أن توثقت الصداقة بينه وبين عبد العزيز ، وعاهده على أن يكثر من زيارته بالفسطاط . ومضى يوم وبعض يوم ، بلغ فيه أبو الطيب باب

مصر الشرقى المسمى : باب الصفاء .

كانت مدينة الفسطاط فى ذلك الحين مستبحرة العمران ، وافرة الثروة ، كثيره السكان ، تشرف على النيل رياضها الباسمة ، وقصورها العالية التى قد يصل ارتفاع بعضها إلى سبع طباق . حكى بعض المؤرخين : أن ستة عشر ألف دلو كانت تتدلى من طاقات بيوتها المطلة على النيل . وكانت رائجة التجارة ، كثيرة الأسواق والحمامات والخانات والمساجد ، التى أشهرها الجامع العتيق ، الذى بناه عمرو بن العاص بعد الفتح .

وكان أهلها فى بسطة من العيش ، ورغد من النعيم لكثرة الأموال واتساع الخصب وقد كثر بها الأدباء والشعراء ، ورحل إليها كثير من أقطاب العلم والأدب فى الشرق ، فوجدوا فى كنفها الرغد وطيب الحياة . وكان الجامع العتيق يزخر بالعلماء وطلاب العلم ، الذين وفدوا عليها من أقطار الأرض ، لتلقى علوم العربية ، وفنون الأدب . وكان بها إلى جانب ذلك مجالس أنس ولهو ، ومجانة وشراب ، تهوى إليها أفئدة الشباب وتختلف إليها جماعات الأدباء — لا تقل عما كانت تزهى به بغداد فى ذلك الحين ، إسرافاً وجنوناً .

وكان قصر كافور بخطة سوق العسكر ، بالقرب من بركة تجرى فيها الزوارق ، وتلتف حولها بساتين ناضرة تعرف بجنان بنى مسكين . وكان القصر شامخ البنيان ، ضخم الأركان ، كأنه الحصن العظيم . وقد انتثرت حوله الحدائق الخضر ، وانهمرت

الجداول المتدفقة . أما أبهاؤه ودهاليزه وقاعاته : فقل ما شئت في جمالها و بهائها ، وزينتها ، وما أنفق في بنائها من أموال يكاد يخطئها العد . وكانت قاعة الملك كأنها قطعة من ذهب : فسقوفها وحيطانها ونقوشها وتصاويرها كلها من الذهب الإبريز ، الذى يكاد سنابرقه يذهب بالأبصار .

جلس كافور الإخشيدى فى اليوم السابع عشر من جمادى الآخرة سنة ست وأربعين وثلاثمائة — على عرش ملكه ، ورجال قصره وجيشه وقوف يحيطون بسريره فى رهبة وخشية ، كأنهم يحرسون سرّاً سماوياً مقدساً . وجلس إلى يمينه نقيب الطالبيين عبد الله بن طباطبا ، فالشريف إبراهيم بن محمد العلوى ، ثم صالح بن رشدين الكاتب ، ثم الذين يلونهم فى المرتبة من العلماء ورجال الدين . وجلس إلى يساره وزيراه : جعفر بن الفرات ، وأبو بكر بن صالح . وقائد عسكره سمول الإخشيدي ، ثم من يتلوهم فى المرتبة من رجال الدولة .

وكان كافور أسود اللون ، فاحم السواد برّاقه ، قصير القامة مترهّل اللحم ، طويل الذراعين ، منتفخ البطن ، ضخم الجمجمة ، أفطس الأنف ، مثقوب الشفة السفلى ، واسع العينين ، صافى بياضهما . تنبعث منهما ومضات فيها دهاء وفيها مكر وخداع .

وكان يحمل فوق رأسه عمامة كبيرة من الحرير الأبيض : المطرّز بالذهب . ويلبس ثوبا من الخزّ التنيسىّ الثمين ، فوقه جبّة من الحرير الأخضر فضفاضة واسعة الكمين .

وكان على الرغم من دمامته وخسة منشئه وجهله ، ذكياً متوقد الذكاء ، شجاعاً حازماً داهية فى ميدان السياسة . فإنه حينما مات سيده الإخشيد اضطربت أحوال مصر وحجلت الفتنة ، وتطلعت رءوس كبار القواد إلى الحكم . فخرج كافور بولدى الإخشيد : أنوجور ، وعلى ، إلى بغداد . فأقر الخليفة الراضى أنوجور على ملك أبيه . واهتبل سيف الدولة فرصة موت الإخشيد فوثب على دمشق ، واستولى عليها ، فسار إليه كافور فى جيش لجب فهزمه وأجلاه عن المدينة .

وقد حال حزم كافور وعمق سياسته دون زحف المعز لدين الله على مصر ، حتى كتب إليه بعض شيعته فى مصر . . . إذا زال الحجر الأسود ، ملك مولانا المعز الدنيا كلها . . . ولا يريدون بالحجر الأسود إلا كافوراً .

وكان محباً للأدباء والعلماء ، يصلهم ويقربهم ، وكانت تقرأ عنده فى كل ليلة سير الأنبياء ، وأخبار الأمويين والعباسيين .

هذا إلى كرمه وتواضعه ، وشدة تمسكه بالدين . فقد كان أبو جعفر بن طاهر العلوى يقول : ما رأيت أكرم من كافور : كنت أسايره يوماً فى موكب خفيف وهو يريد التنزه ، وبين يديه عدة جنائب بسروج من ذهب وفضة ، وخلفه بغال يمتطيها الخدم والعبيد ، فسقطت مقرعته من يده ولم يرها خدمه فنزلت عن دابتى وأخذتها من الأرض ورفعتها إليه ، فذعر لما فعلت وقال : « أعوذ بالله من بلوغ الغاية . ما ظننت أن

الزمان يرفعنى حتّى تفعل بى أنت هذا ؟ » وكاد يبكي . فقلت : أنا صنيعة الأستاذ ووليه . فلما بلغ باب داره ودّعنى ، فلما سرت التفت فإذا النجائب والبغال كلها خلفى . فقلت : ما هذا ؟ قالوا : أمر الأستاذ أن يحمل موكبه كله إليك . فأدخلته دارى ، وكانت قيمته تزيد على خمسة عشر ألف دينار .

اتجه كافور إلى وزيره ابن الفرات وقال فى صوت خافت :

ــ أظن الشاعر الجديد قد وصل إلى المدينة .

ــ نعم يا مولانا ، لقد علمت من بعض الجند أنه وصل الآن .

ــ هل أعددت له كل شيء ؟

ــ نعم يا مولانا . لقد أُعدت له دار أبى بكر القريبة من باب الساحل ، وفُرشت بأحسن الأثاث ، ووُضع بها من يكفى لخدمته .

ــ هذا حسن . لعله لا يفرّ منا كما فرّ من ابن حمدان !

ــ إن للشعراء يا مولانا ميزاناً للأخلاق غير الميزان الذى تواضع عليه الناس . فقد قال هذا الشاعر لابن حمدان :

وقيّــدتُ نفسى فى ذَراك محبــةً
ومن وجد الإحسان قيداً تقيــدا

ولكننا رأيناه يفر منه كما يفر الزئبق من البنان .

ــ ماذا يقصد الشاعر يا جعفر من هذا الشعر الذى ذكرته ؟

ــ يقول يا مولانا ، إنه قيد رجليه عند ابن حمدان ، وإنه

لا يرحل عنه لأنه يحبه .

ـــ هاها . فهمت فهمت ، وبعد أن قيد رجليه فكّ قيدهما وفرّ . لأنه هو الذي قيد نفسه . أما إذا قيّده غيره يا جعفر ، فإنه يصعب عليه أن يفرّ . ،

ـــ لا شك فى أنه سينسى عند مولانا كل ملوك الأرض .

وبينما هما فى الحديث ، إذ دخل كبير الحجاب وهو يقول : إن الشاعر المتنبي يلتمس أن ينال شرف المثول أمام مولانا . فرفع كافور رأسه وقال : ليدخل .

دخل المتنبى فى ثياب السفر ، بعد أن خلع نجاد سيفه بالباب ، فقبّل الأرض ثم أطرق قليلاً ، فحيّاه كافور قائلاً : أهلا بشاعر العرب . أهلا بأبى الطيب . لقد أبطأت علينا كثيراً ، والدولة لا تكمل عظمتها إلا بمثلك . إنك ستكون فى ضيافتى ، وأرجو أن تطيب لك الإقامة . أقبل علىّ أبا الطيب ، ثم مدّ إليه يده فانكبّ عليها كأنه يريد أن يقبلها ، فجذبها العبد منه وهو يقول : أستغفر الله ! ثم أشار فأحضر كرسى إلى جانبه ، وأومأ إلى أبى الطيب بالجلوس . وهنا قال ابن الفرات :

ـــ قد قرأنا ما ورد علينا من شعرك فى ابن حمدان فرأينا فناً جديداً ، وروحانية قوية تهز المشاعر ، وتثير خامد القلوب . ونرجو أن يتفتّح لك النيل وحدائقه الباسمات عن معان لم تخطر ببال شاعر . إن بمصر يا أبا الطيب كثيراً من الشعراء ، وأكثرهم مجيد مبرز ، وقد رحل عنا منذ قليل أبو نصر كشاجم ، وهو

شاعر مبدع سبّاق . فمصر اليوم تجرى فى ميدان العلم والأدب مع بغداد فى طلَق ، وتكاد تتجاى عليها فى شئون الحرب والسياسة .

— علمت أن بمصر شعراء ، وأرجو ألا يكون شأنى معهم كما كان مع شعراء حلب ! إن الشعر يا سيدى دولة يأبى رعاياها أن يختاروا لهم ملكاً ، ولو أراد الحسد أن يبنى له عشاً ما اختار إلا قلب متشاعر . دعنى من هؤلاء لأننى جئت للأستاذ وحده ولن أقول فى غيره .

— لن تقول فى غيره ؟ !

— إن من أدب الشاعر أن ينصرف إلى ممدوحه ، فلا يلهج إلا باسمه ، ولا يشيد إلا بفضله .

فاربدّ وجه ابن الفرات ، وتكلف ابتسامة حاولت أن تمحو ما بدا على وجهه من سماء الغضب ، وقال :

— وأظن أن من أدب الشاعر أيضاً أن ينصرف عن ممدوح ليمجّد ممدوحاً آخر ، ويدّعى أن الدهر لم يسمح بسواه ! فأسرع أبو الطيب قائلاً :

— إن القلب قلّب ، والشعر كالناس قد يخطئ أحياناً ثم يصيب شاكلة الصواب . فاتجه إليه ابن الفرات فى نظرتى نمر ، وقال :

— أرجو ألا يخطئ هذه المرة يا أبا الطيب ! وهنا تحرك كافور من مجلسه قليلاً فوقف من بالقاعة ، ووجه الحديث إلى المتنبى قائلاً : يوم الثلاثاء إن شاء الله نسمع إنشاد الشاعر ،

بعد سبعة أيام . فوقف المتنبي وحيّا في خضوع ثم خرج

ذهب المتنبي إلى داره الجديدة وفي رفقته صالح بن رشدين:
وكان شاعراً مجيداً ، أولع بشعر المتنبي قبل أن يراه ، فلما رآه
زاد به إعجاباً ، وله حباً : أحب فيه الرجولة ومخايل الشهامة ،
ورأى فيه شاعراً لا كالشعراء ، وفي شعره شعراً لا كالشعر ،
كأنّ ما كان سمعه من شعره صورة لنفسه الطموح وخلقه العظيم ،
فلما بلغا الدار ، شدّ على يده وقال :

— لقد أحببتك وهفت نفسي إليك منذ رأيتك يا أبا
الطيب . فهل أطمع في أن تقبلني صديقاً ؟ لقد سمعت حديثك
مع ابن الفرات ، وعرفت أنك أغضبته ، وهو رجل له دهاء
الثعلب وفتك النمر ، يحوك من خيوط الشمس شباكاً ، ويخلق
من قطرات الغمام نبالا ، وقد كان يريدك على أن تمدحه
فجبهته في غير رفق ، ورددته في غير إحسان ، وهو لن يترك لك
هذه ، ولو اعتصمت بأسباب السماء . فاحذره يا أبا الطيب ،
واحذر من تخاطب ومن تعاشر في هذا البلد . إن العيون هنا
تنبث في كل مكان ، والجواسيس ينفذون إلى ما لا ينفذ إليه
الهواء . احذر أبا الطيب ، فإن أصحاب الأخبار في هذه الدولة
هم المصرّفون للأقدار ، ولهم مناهج يعجز إبليس اللعين عن
انتهاجها : يأتون إليك مرة في صورة الناصح ، ثم ضحك وقال :
وأخشى أن تعدني منهم — ومرة يشتكون إليك جور الحكام ،
وأخرى يمدحون أمامك من لا يستحق المدح . فاحذرهم

يا أبا الطيب ، وانصرف عنهم فى هوادة ولطف ، وأرجو أن تتخذنى لك أخاً مرشداً ، وخليلا ناصحاً .

فهز المتنبي يده وقال : إنى أشرف بصداقة سيد شعراء مصر ، وسأمشى فى نور هدايتك .

ودخل المتنبي الدار جزعاً محسوراً ، فوصف لمحسد كافوراً ومجلسه فقال : دخلت يا بنى على أمة حبلى يسجد أمامها صناديد الأبطال ، ويخضع لإشارتها دهاة الرِّجال . جلس فوق عرشه ، فرأيت فى ثياب أمير قرداً ، عيناه عينا ثعلب ، وإطراقه إطراق ثعبان . أما ابن الفرات : فثقيل متعالم متعاظم ، نظر إلىّ فى كبر وجبريه كأنه ينظر إلى شاعر مجتد أفّاق. سُحقاًلهم ،وسحقاً للزمان الذى قذف بى إليهم : والله لكأنى أشعر أنى جئت لأهجوهم لا لأمدحهم ! وكيف تنبسط نفسى لمديحهم ، أو يتحرك لى لسان بالثناء عليهم ؟ إن مدح الأسود سيخلق فى الشعر فناً جديداً ، أسمعت يا محسد ؟ سيخلق فن المديح الهجائى .

— كيف يا أبى ؟

— إنى أعتقد أن لحظات ستمر بى وأنا أقرض الشعر فى الأسود ، أنسى فيها نفسى فربما طفرت منى أبيات فى مديحه ، هى شرّ من الهجاء .

— وماذا تصنع إذا فهم ؟

— إنه لا يفهم يا أغبى الأغبياء . هات عبدنا مسعوداً وأنشده إحدى قصائدى ، فإن فهمها ، اقتنعت وأخذت الحذر .

— إن مسعوداً لا يفهم .

— وإن كافوراً لا يفهم ، لأن كافوراً مسعود قبل أن يكون كافوراً ، ومسعوداً كافور بعد أن كان كافوراً .

— والوزراء والشعراء الذين حوله ؟ ألا تخشاهم ؟ !

— اسمع يا بنيّ : إن الكلام الموجّه يفهم من ناحيتين ، وهؤلاء لجبنهم وجلالة قدر كافور عندهم ، لا يفهمون إلا ناحية المديح .

— وإذا فهموا الناحية الأخرى ؟

— لا أبالى ما يفهمون . إن شعرى لن يكون إلا صورة لنفسى رضى الناس أم أبوا . ولو كنت من الذين لا يقولون الحق الذى تجيش به نفوسهم ، لكنت اليوم ملكا ، أتندّر بالأسود الزنيم .

ومر أسبوع صاغ فى غضونه أبو الطيب أول قصيدة فى مدح كافور . وحين حان الموعد غصّ القصر بالأدباء والشعراء ، والعلماء . وجلس كافور على عرشه ، وقد أحاط به القواد والوزراء ، والأشراف والعلماء ، وقوفاً . وقدم المتنبى فانحنى فى إجلال وخشوع ، وأخذ ينشد قصيدته فى صوت نديّ حلو النبرات ، وكان صدى كل بيت إعجاباً واستحساناً . وطلب بعض الشعراء إعادة بعض الأبيات لرصانتها ولما فيها من تجديد رائع ، وفن رفيع . وكان كافور يهز رأسه طول مدة الإنشاد ، كأنه أرجوحة طفل عنيد ، أبى أن ينام . فلما فرغ أبو الطيب أمر له كافور بعشرة آلاف درهم . وأقبل القوم عليه يحيّونه وينثرون فوقه أزاهير الإعجاب والثناء . وخرج مع الشريف

إبراهيم العلوى وهو مطرق الرأس ، حزين يهمس بمطلع قصيدته :

كفى بك داء أن ترى الموتَ شافياً
وحسبُ المنـــايا أن يكنّ أمانيـــا

ضجيج

أثارت قصيدة أبى الطيب ضجةً وصخباً فى مجامع العلم والأدب ، فلو قيل إن العبيديين زحفوا على مصر من المغرب ، ما كان شغل الناس بالخبر واهتمامهم به ، فوق شغلهم بهذه القصيدة وما فيها من ومضات فنية ، لم يكن لهم بها عهد . ففى القصر يزدحم القواد ورجال الدولة ، حول ابن الفرات ، وهو يردد كثيراً من أبياتها ، معجباً تارة وعابساً تارة أخرى . وفى سوق الورّاقين يتكاثر الأدباء على النساخين ليظفروا بنسخ منها ، وإن اشتطوا فى الأجر ، وغالوا فى الثمن . وفى الجامع العتيق يتجمع الطلاب ، ويشتد بينهم الجدل فى معانى القصيدة ومراميها ، وبينما هم فى لغط وصراع ، إذ أقبل عليهم أبو بكر الكندى ، وكان من أدباء مصر وعلمائها ، فصيحاً بارعاً فى الحديث واللغة والنحو والأدب ، حتى لقد لقّب بسيبويه ، لمكانته فى النحو وغريب اللغة . وكانت مع هذا به لوثة جنون ، فكان يركب حماراً أكثر أوقات النهار ويدور به فى الأسواق ، ويتكلم وهو راكب ، والناس حوله يكتبون ما يقول .

فلما رأى الطلبة أبا بكر تسابقوا إليه متصايحين : إلينا

أبا بكر ! إلينا يا صاحب الحمار ! فقد اشتد جدالنا فى بعض أبيات من قصيدة المتنبى ، وعندك القول الفصل ، وأنت جهيزة التى تقطع قول كل خطيب .

— إن المتنبى يا أبنائى رجل معروف المكانة ولكن له هفوات فى اللغة ، وانحرافاً عن الأسلوب السليم . فصاح الجمع : كيف يا أبا بكر ؟

— لقد زل فى بيته المشهور :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى
عدواً له ما من صداقته بدُّ

لأن الصداقة مشتقة من الصدق فى المودة ، والحر لا يصدق فى مودة عدوه . والصداقة ضد العداوة ، ولا موقع لها فى هذا الموضع . فابتدره أحد الطلبة قائلا : وماذا كان يقول يا أخا الحمار ؟ ! .

— كان يقول :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى
عدواً له ما من مداجاته بدُّ

فصفق الطلاّب ، وعلا صياحهم فى إعجاب وسخرية ، فأشا إليهم بذراعيه ليسكتهم . ثم قال ؛ أما القصيدة الجديدة فمطلعها وهو :

« كفى بك داء أن ترى الموت شافياً » لا يصح أن يخاطب به ملك وإن كان كافوراً . وفى قوله :

ولكن بالفسطاط بحـــراً أزرتـــه
حياتى ونصحى والهوى والقوافيـــا

سخف وتطفل وتعد على الوزراء وكبار الدولة . لأن قوله أزرته حياتى معناه جعلت حياتى تزوره ، وليس لهذا المعنى قيمة يتجه إليها شاعر . ثم يقول وأزرته نصحى فيدعى أنه وصل فى أصالة الرأى وبعد النظر فى السياسة إلى القمة ، وأنه قدم من الشام لأن الأستاذ كان فى حاجة إلى نصحه وثاقب رأيه ، على الرغم من كثرة قوّاده ووزرائه .

فغضب أحد الطلاب وقال : هذا تعصب يا مجنون . فأومأ إليه فى حلم وهدوء وقال : أما ثالثة الأثافى فقوله فى المديح :

فتى ما سرينا فى ظهور جـــدودنا
إلى عصره إلا نرجى التـــلاقيـــا

فهل سمعتم أقبح من هذا وأسخف ! إن آباءكم أيها الطلبة النجباء من لدن آدم كانوا ينقلونكم من ظهر إلى ظهر ، لتتمتعوا بطلعة جمال كافور ! ثم انظروا إلى التركيب المعوّج وإلى سوء الأدب فى حق ممدوحه حين يقول :

ومن قـــول ســـام لو رآك لنسله
فدى ابن أخى نسلى ونفسى وماليا

ومستقيم الكلام أن يقول : لو رآك سام لقال أفدى ابن أخى بنسلى . واللئيم هنا يقذف سهماً مسموماً فيلحق ملكنا بأبيه حام الأسود فى وقاحة سافرة .

هذا أيها الطلبة بعض ما فى القصيدة التى لهجت بها الأفواه، وتناقلها الرواة ، وغالى بها أدعياء الشعر والأدب . ولكنكم يا أهل مصر لا تحبون إلا الجديد ، وما أشبهكم ببنى إسرائيل الذين سئموا المنّ والسلوى ، واشتهوا على الله الفول والبصل !

وهنا انبرى له فريق كبير من الطلبة يتزعمهم شابّ كان يعرف بينهم بالذكاء وقوة الشكيمة ، حتى لقد كان العلماء يدارونه ويصانعونه ، ويتجنبون سلاطة لسانه ، فقال له :

— هذا نقد زائف أيها الشيخ . وهذا دأبكم دائماً أيها الأدباء الجامدون ، لا يلتمع أمامكم من الشعر جديد إلا قطعتم أنفاسكم فى إطفائه . تركت القصيدة كلها يا مولانا ، وهى آية خالدة من آيات البيان ، وجئت تماحك فى أبيات خيّل إليك سوء فهمك أن فيها متنفساً لحقدك ، وكل ما قلته هراء ، ولن يضر الشمس ألا تراها مقلة عمياء ، ولن يبالى السحاب بنباح الكلاب .

فقهقه أبو بكر طويلاً وقال : إننى السحاب ، وأنتم الكلاب ! ثم انفتل من بينهم كأن أرضاً ابتلعته .

وفى هذا اليوم كانت تجلس عائشة بنت رشدين إلى جانب شرفتها المطلة على النيل ذاهلة واجمة ، وكانت المراكب تتهادى فوق أمواجه تحتها ، وقد داعب النسيم شُرعها فى رفق ولين ، كأنه زفرة عاشق ، أو جسة طبيب حاذق . وانطلقت أصوات الملاحين بالغناء مغرّدة مطربة فى نغمات اعتادوها ، وأغنيات ابتدعوها ، فيها شوق وفيها شكوى وفيها حنين إلى الأوطان .

وكانت عائشة بارعة الحسن مشرقة الطلعة ، لها وجه صباحي تحيّر فيه ماء الشباب ، وتزاحمت فيه صنوف الفتنة : فعينان سوداوان فيهما سحر ، وفيهما خمر ، لهما نظرات ذابلة يخفضها الحياء ، ويعترك أمامها اليأس والرجاء . وأنف تأنّقت فى تكوينه يد الجمال ، لا ترى فيه عوجاً ولا أمتاً . وفم ياقوتى لؤلؤى ضن على الشفاه بالقبلات ، وعلى العاشقين بالبسمات .

وخصر تثبت الأبصار فيه كأن عليه من حدق نطاقا

ثم هى إلى ذلك معتدلة القد ، رخصة الجسم ، هضيم الكشح .

لها بشر الدر الذى قلدت بـه

ولم أر بدراً قبلها قلد الشهبا

وكانت صورة للعفاف ، وتمثالا للطهر ، وملكا سماويًّا كوّن من نقاء ونور .

وقد كثر عشاقها ، وتسابق إلى اجتذابها أبناء سراة المدينة وكبار حكامها ، فكانت تقابل الإقبال بالإعراض ، والرجاء بالإباء ، لأنها أنفت أن تكون فى طاعة رجل ، أو أن يكون جمالها ملهاة للعابثين ، ونهباً للواغلين . فتن بها أبو بكر بن صالح وزير كافور ، وجن بها جنوناً ، وأغراها بالمال والجاه ، ولم يترك أحبولة لاصطيادها إلا نصبها ، ولكنها صدفت عنه فى كبرياء ، ونفرت كما تنفر مروّعة الظباء .

وقد نشأت عائشة فى بيت أدب وشعر ، فقد كان أخوها أبو على صالح بن رشدين من أعظم كتاب المملكة وأبرع شعرائها

وكانت داره مثابة لأدباء مصر ، فنشأت عائشة فى هذا الجو الأدبى كما تنشأ الزهرة على شاطئ الغدير . وثقفها أخوها فأحسن تثقيفها ، وتلقت من كبار العلماء والشعراء دروساً فى الشعر والنحو واللغة ، وكان من أساتذتها عبد الله بن أبى الجوع الشاعر الأديب اللغوى . وكانت برزة فى النساء لا تحتجب عن الرجال إلا بخمار رقيق أسود تلفه حول وجهها فيبرز كالبدر فى محتلك الظلام .

وكثيراً ما حضرت فى دارها مجالس للشعراء الذين كانوا يكثرون من ازديار أخيها لكرمه وسجاحة خلقه . وكان أبو بكر ابن صالح يدأب على شهود هذه المجالس ، عله يظفر من فاتنة لبه بكلمة رضاً أو لمحة حنان ، ولكنه كان لا يلقى إلا تجاهلاً وإعراضاً .

جلست عائشة إلى جانب شرفتها وفى يدها ورقة كتبت بها قصيدة أبى الطيب ، وكانت تقرأها متئدة مفكرة ، وكثيراً ما كانت تهتز فى طرب وإعجاب . وبينما هى منصرفة إلى القراءة إذ دخل أخوها وهو يصيح : ألا تزالين تكررين أبيات هذه القصيدة ؟ !

— لقد حفظتها ، إنها إلهام صور فى كلام .

— حقاً إنها من عيون الشعر .

— إنه شاعر وفى . اسمع يا أبا على حنينه إلى سيف الدولة ، وكيف صاغ هذا الحنين فى عزة الأنوف ، وإباء العيوف :

حبيتك قلبي قبـــل حبك من نأى
وقد كان غدّاراً فكن أنت وافيـــا
وأعلم أن البـــين يُشكيك بعـــده
فلست فؤادى إن رأيتك شـــاكيا
فإن دمـــوع العين غـــدُرٌ بربها
إذا كنّ إثر الغـــادرين جواريا
إذا الجود لم يرزق خلاصاً من الأذى
فلا الحمـــد مكسوباً ولا المال باقيا
وللنفس أخـــلاق تدل على الفتى
أكان ســـخاء ما أتى أم تساخيا
أقِلّ اشتياقاً أيهـــا القلب إننى
رأيتك تصفى الود من ليس صافيا
خلقت ألوفاً لو رجعت إلى الصبا
لفارقت شيبي موجع القلب باكيا

أرأيت يا أخى كيف يصاغ الكلام ، وكيف ينفث السحر ، وكيف يثور العاشق المهجور على قلبه لأنه يحب من لا يفى ، ويصفى الود للمماذق الغادر ! . ثم هل رأيت كيف وخز الشاعر سيف الدولة فى رفق لا يكاد يحس ، حين قال إن إعطاءه لم يكن سخاء بل كان تساخياً ؟ ثم هل مر بك فى حسن التخلص والإبداع فى مدح السواد مثل قوله :

قواصد كافور توارك غيره
ومن وجد البحر استقل السواقيا
فجاءت بنا إنسان عين زمانه
وخلت بياضاً خلفها ومآقيا

قل لى يا صالح : هل حضرت حفل الإنشاد ؟

— حضرته ، وواثقت أبا الطيب على المحبة والإخلاص .

— نعم ما فعلت يا أخى ، إنه غريب الدار ، قليل الصديق فى بلد تنبت فيه النمائم كما تنبت الأشواك .

— لقد حذرته من كل ذلك يا عائشة ، ولم تعجبنى نظرة ابن الفرات إليه ، وظفرت من أبى بكر بن صالح فى المجلس كلمات شممت منها رائحة الحقد والضغن .

— بئس القوم ! إنهم لا يعيشون إلا فى جو مدنس بالمكر والخديعة . صف لى المتنبى يا أبا على .

— إنه صورة للعربى السمح الوسيم .

— هل شاع فى شعره الشيب كما يقول ؟

فضحك صالح ، ونظر إليها نظرة مزجت فيها الدعابة بالاستنكار ، ثم قال :

وما لنا الآن بشيب شعره ، ونحن نتحدث فى رائع شعره ؟ لا يا فتاتى إن شعره لم يطرقه الشيب . وهو الآن فى نحو الأربعين لم تفارقه نضارة الشباب . هل من سؤال آخر ؟ سؤال مثلا عن لون عينيه ؟ أو تكوين أنفه ؟ أو طول قامته ؟

ـ إنلك رجل ماجن يا صالح ، لا تترك المزح ما وجدت إليه سبيلاً . ثم قامت فى عجلة وهى تتصنع الاهتمام بإعداد العشاء .

ومرت أيام كان فيها المتنبي يزور كافوراً فى كل يوم ، ويلقى من بشاشته وكرمه ما يغرس المحبة فى القلوب ، ولكن هيهات ! فإن المتنبي لا يريد مالاً ، ولا يريد بشاشة ، وإنما يريد من الأيام ما لا توده ، ويسعى إلى منهل يعجز الطير ورده وكان يلتقى فى أثناء هذه الزيارات بابن الفرات ، فيلبس كل منهما لصاحبه غير وجهه ، ويتحدث بغير ما فى قلبه . وكثيراً ما شهد المتنبي وفود الشعراء وطلاب الحاجات وهم يردون على ساحة كافور . وحدث مرة أن كان فى حضرة الأستاذ وإلى جانبه أبو إسحاق النحوى ، فدخل الفضل بن العباس على كافور يحييه ، وما كاد يقول : أدام الله أيام سيدنا ، حتى خفض ميم الأيام ، فابتسم من بالمجلس ، ولحظ كافور ابتسام القوم فابتسم ، ووقف أبو إسحاق يعتذر عن الفضل ويقول :

لا غرو إن لحن الداعي لسيدنا
وغَصّ من دهش بالريق والبهـر

فتلك هيبتـه حالت بجلالتهـا
بين الأديب وبين القول بالحصر

فإن يكون خفض الأيام عن غلط
فى موضع النصب لا عن قلة البصر

فقـــد تفاءلت فى هـــذا لسيدنا
والفـــأل نأثره عن ســـيد البشر
بأن أيامه خفض بلا نصب وأن أوقاته صفو بلا كدر

ونبتت أول بذرة للشقاق بين المتنبي وبعض أدباء مصر ، وطارت أول شرارة للشر بينه وبين طائفة من شعرائها ، حينما دُعى مرة إلى مجلس أبى بكر بن صالح وزير كافور ، وكان ابن الفرات حاضراً ، وقد غصّ المجلس بالشعراء المتعصبين لأبى القاسم الأنصارى ، الذى جاء لينشد أبا بكر قصيدة فى مديحه ، وكثر لغط الشعراء ، وكثرت الإشارة إلى المتنبي ، وهمس صالح بن مؤنس فى أذن من بجانبه قائلا :

ــ سيكون هذا اليوم فاصلا فى سمعة مصر فى الأدب ، ومكانتها فى الشعر .

ــ إن أمة أنت شاعرها يا ابن مؤنس لن تلقى بلوائها إلى شاعر أفّاق . فظهر الغضب على وجه ابن أبى الجوع وكان صديقاً وفيا للمتنبي ، فأشار إليهما بيده فى عنف وهو يقول :

ــ ليس للشعر وطن أيها الغبيّان ، والعربية وطن لكل عربى . وهنا وقف أبو القاسم الأنصارى وتّهيأ للإنشاد بين نظرات الإعجاب من شيعته ، وإبتسامات الرضا من أبى بكر وابن الفرات . وما كاد يبدأ قصيدته بقوله :

« نظر المحب لدى الحبيب غرام » .

حتى انبرى له المتنبي يخطّئه فى خشونة وجفوة صائحاً : قف

يا شيخ ! إن العرب لا تقول نظر لدى فلان ، ولا تقول غرام لدى فلان ، وإنما تقول نظر إليه ، وغرام له ، إلا إذا كنت تريد أن تجعل من لغة الضاد لغة نبطية .

وهنا اربدّ وجه ابن الفرات لأن أجداده كانوا من النبط ،

ولم تنل الدهشة من الأنصارى ، ولكنه قهقه فى سخرية وقال : لا تجزع يا أبا الطيب فقد فسد كل شىء فى هذا الزمان حتى أصبح مثلك يتبجّح بمعرفة لغة لعرب ، ويقول : قل كذا ،ولا تقل كذا . إن سميّك الكندى الفاجر الضليل ، لا يجرؤ على أن يدّعى أنه أحاط بالعربية ، فكيف بك وأنت لست من ذاك ! إن العرب أيها الأصمعى الجديد تقول : نظر لديه وله وإليه ، وتقول : غرام لديه وله وإليه ، والكلمات ينوب بعضها عن بعض ، وإلا فأين التضمين وأين المجاز ؟ فقال المتنبى فى حدة : تقول أكلت على الإناء ؟

ـــ أقول أكلت على الإناء وفيه ومنه . وهنا صفّق أشياع الأنصارى ، وتصايحوا فى شماتة ونكر . فلما هدءوا قال ابن أبى الجوع : إذا كان بعض الكلمات ينوب عن بعض فإن هذا معقود بشرط لا بد منه هو أن يكون الأسلوب جارياً مع الذوق العربى السليم ، سائغاً فى أذن الأديب البصير بمرامى الكلام . وهنا تسارع القوم إليه فأسكتوه ، وشرع الأنصارى فى الإنشاد فأخذ أشياعه يبالغون فى الاستحسان وطلب الإعادة . فلما أتم القصيدة خلع عليه أبو بكر وأجزل له العطاء ، فانتحى ناحية

من الحجرة وأخذ يدوّن أبياتاً حتى إذا أتمها طلب أن ينشدها ، فأذن له ، فكان منها :

لما تعرض لى بمقت حاسدى
أبدى الملام وكيف يرضى الحاسد ؟

فى مجلس أما الوزير فمنكب فيه يؤيدنى وأنت الساعد
ولى فما أنا شاكر لسؤاله يوما ولا هو بالإجابة حامد

وهنا نظر ابن الفرات إلى أبى الطيب وقال : هذا شاعر هجاء سليط اللسان فخذ حذرك منه يا ابن الحسين .

— إنه أقل من أن ألقى إليه أذناً ، أو أرفع له قدراً بالرد عليه ، ولقد قلت فيمن هم أقدر منه وأشعر :

أرى المتشاعرين غروا بذمى ومن ذا يحمد الداء العضالا؟
ومن يك ذا فم مر مريض يجد مراً به الماء الزلالا

ثم وقف مغضباً ، وانصرف مع ابن أبى الجوع ، وقد عرف أن سخط الناس عليه وبغضاءهم له لا يفارقان ظله أينما سار ، ولو أنصف نفسه لعلم أن نفسه هى مثار السخط ، ومصدر هذه البغضاء . وودّ أن يرحل عن مصر ، ولكن ماذا يعمل لهذا الأمل الطائر الذى لا يستقر فى وكن ، وذاك الخيال السابح الذى لا ينال بالأكف؟ ليصبر إذاً ، وليتحمّل فى سبيل غايته كيد الكائدين ودس الحاسدين . ووصل فى هذا اليوم إلى داره وهو ينفخ من الغضب ، ويزمجر زمجرة الليث ، وينشد :

ومن عرف الأيام معرفتى بها وبالناس روّى رمحه غير راحم

حب

وبنى كافور داراً جديدة بالقطائع بالقرب من الجامع الأعلى ، واحتفل بافتتاحها ، ودعا أبا الطيب أن ينشد قصيدة فى الحفل ، فقضى يومين وهو فى تردد : أيشير إلى مطلبه الأسنى ، أم يترك الأمر إلى حذق كافور وفطانته ، فقد بدرت منه كلمات أمّل المتنبي منها خيراً ؟

ويعقد الحفل ، وينشد المتنبي قصيدته فيبهر الناس بما فيها من جرأة وتدلل على الممدوح حين يقول :

إنما التهنئات للأكفاء ولمن يدنى من البُعداء
وأنا منك لا يهنئ عضوٌ بالمسامرات سائر الأعضاء
مستقلٌ لك الديارَ ولو كا ن نجوماً آجُرُّ هذا البناء

وتسير القصيدة فى الأندية والمحافل ، وتردّدها الأفواه ، ويرفعها نصراء المتنبي إلى قمة لم يصل إليها شعر شاعر ، وينزل بها أعداؤه إلى وهدة مالها من قرار . ومن العجب أن ما يستهجنه الأعداء هو بعينه ما يستجيده النصراء . وقف صالح بن مؤنس فى جامع عمرو بن حشد من الطلبة وأخذ يصيح : اسمعوا أيها الطلاّب ، اسمعوا اسمعوا هذا الحدث الجديد فى الشعر ! وهذا الفتح المبين فى عالم السخف ! أسمعتم أيها الأنجاب بشمس منيرة سوداء ؟ أسمعتم بمثل هذا التناقض ، وبمثل هذا الخلف ؟ شمس تضىء وهي سوداء ، وليل يظلم وهو مضىء . أسمعتم برجل أعمى وهو

يبصر؟ إن لم تكونوا قد سمعتم بشيء من هذا فاذهبوا واسألوا هذا الشاعر الدعيّ المتشدّق ، فإنه يقول ويخاطب مولانا :

تفضَح الشمسَ كلما ذرَّت الشمـ
س بشمس منـيرة سـوداءِ

وهنا يقهقه بعض الطلاب ويصيح : هذا ابتداع جديد ، لم تخلق له عقول مثل عقولنا !

ودخل صالح بن رشدين على أخته وكانت تنظر فى رسالة من رسائل الغرام التى يبعث بها إليها أبو بكر بن صالح فى كل يوم ملحاً مستعطفاً ، فقذفت بها فى تأفف وسخرية ، ثم اتجهت إلى أخيها سائلة : ماذا فى يدك يا أخى ؟

— القصيدة الجديدة . لقد كان هذا اليوم نصراً مؤزراً لأبى الطيب يا عائشة . فقالت فى تطلع وشوق :

— كيف ؟

— قصيدته فى الدار الجديدة .

— ليس عندى شك فى أنها ستكون درَّة نادرة .

— إن فيها بيتاً لم يخفض جناحه لشاعر من قبل . أسمعت بمثل قوله وهو يخاطب كافوراً :

تفضَح الشمس كلما ذرت الشمـ
س بشمس منيرة سـوداء

— الرنين الرنين ! ! الرنين يا صالح ! !

— لا تقولى الرنين يا عائشة . قولى المعنى قولى الخيال الغريب ! أليس عجيباً أن يجرؤ شاعر على أن يطرق هذه الناحية

الدقيقة المحفوفة بالمخاوف فى مدح أسود ؟ ولكن أبا الطيب طرقها غير هيّاب ، وتحدّى مَن قبله من الشعراء الذين أكثروا من تشبيه وجوه ممدوحيهم البيض بالشمس . فهو يقول إن كافوراً يفضح الشمس كلما طلعت ، بشمس منه من نوع جديد ، هى شمس سوداء ، ولكنها على سوادها تفوق شمس السماء فى إنارة طريق الحق للضالين ، وفى رفعة أوجها و بعد منزلتها . أرأيتِ شاعراً فى القديم قال ما يشبه هذا ؟ .

ــ لا يا أبا علىّ هذا خلْق جديد . ثم أخذت منه الورقة ، وجعلت تقرأ حتى بلغت آخرها فقبضت على ذراع أخيها وهى تقول : اسمع يا صالح إن الرجل بعيد المطامع ، إنه يطلب من كافور شيئاً عظيما فليت شعرى ماذا يكون ؟ ثم أخذت تقرأ :

يا رجـــاء العيـــون فى كل أرض
لم يكن غيرَ أن أراك رجـــائى
ولقـــد أفنت المفـــاوز خيـــلى
قبـــل أن نلتقى وزادى ومـــائى
فارم بى ما أردت مـــنى فإنى
أســـدُ القلب آدمىُّ الـــرواء
وفـــؤادى من الملـــوك وإن كا
ن لســـانى يـــرى من الشـــعراء

ماذا يريد يا صالح ؟ فابتسم ثم قال :

ــ إنه يقول إن فؤاده من الملوك ، وأخشى أن يجد أعداؤه

من مثل هذه البوادر منفذاً للكيد له عند كافور . فتجـّهم وجه عائشة وهزّت رأسها وهى تقول :

— ما أكثر الدسائس فى هذا البلد الخصيب ! ثم التفتت إلى أخيها قائلة : علمت بما جرى للمتنبي من تألب الشعراء عليه فى مجلس أبى بكر بن صالح ، ومن انتصاره لهم . وا أسفاه للشاعر الغريب بين هؤلاء الكلاب السود ! هلاّ دعوته غداً أبا علىّ لنشعره بالأنس ، ولنخفف عنه بعض ما يلاقى من الوحشة والضيق ؟

— سأدعوه غداً ، وسأدعو معه جملة من الشعراء والأدباء ، وستكون ليلة لاهية عابثة ، ينسى بها كل ما ينتابه من هموم ، وستطر بنا « خمر » المغنية ، وسننسى عقولنا ، ونفرّ من هذا الوقار الملعون الذى أشاب نواصينا قبل الأوان . فضحكت عائشة وقالت : إننى لا أحب هذا الصخب ولا تلك العربدة ، ولكنكم معشر الرجال لا تنسون أبداً أنكم كنتم أطفالاً .

وذهب ابن رشدين إلى دار المتنبي فرأى عنده الشريف إبراهيم العلوى وعبد العزيز الخزاعى زعيم العرب ببلبيس ثم بعض المعجبين به من الشعراء كابن أبى الجوع وابن أبى العصام . وكان المتنبي يحدثهم فى حروب سيف الدولة ، وكيف خاض كثيراً منها ، وكيف لاقى الموت فى بعضها . فلما فرغ من الحديث اتجه ابن رشدين إلى من بالمجلس وقال : لقد جئت لأدعوكم مع أبى الطيب للعشاء بدارى غداً ، وترجو السيدة عائشة — التى

تقدر أدب ابن الحسين وشعره — وأرجو معها ، أن تنال هذه الدعوة منكم قبولاً . فأجاب الشريف :

— إن السيدة عائشة زهرة مصر الناضرة ، ونجمها الساطع ، ومثلها فى طيب عنصرها وعلو منزلتها فى الشعر والأدب لا يرد له دعوة . سمعاً وطاعة يا ابن رشدين . وقال المتنبى :

— إننى رجل جد وصرامة خلق ، وأخشى أن مثلى لا يجد له نصيباً فى مجلس ربات الحجال . فقال الشريف :

— إن أديبتنا تعشق النفوس قبل الوجوه ، وترى جمال العبقرية فوق كل جمال . فلتكن خشناً كما تحب أن تكون ، فإنها ستخلص ما فيك من ورد مما اشتبك به من أشواك . وابتسم المتنبي وهز رأسه لابن رشدين بالقبول .

وقدم المتنبي إلى دار ابن رشدين بعد الغروب فاستقبله صاحب الدار ، وتقدمت إليه عائشة فمدت إليه يدها مرحبة محيية ، ونظرت فإذا هى أمام صورة للعظمة العربية والرجولة المتوثبة ، ورجعت البصر فرأت ملامح بطولة ، ومظاهر عزيمة تتحطم دونها آمال النساء .

أخذت عائشة تحادثه وقلبها يخفق ، ولسانها يتعثر ، لقد هجم عليها شعور لم تعرف له من قبل مثيلاً ، وأصابت جسمها رعدة لم تدر لها تأويلاً ، إنها تحس بسرور يسرى فى أوصالها ولكنه سرور ممزوج بخوف ، مصحوب بما يشبه الألم . وتتخيل كأن ناراً تأججت فى فؤادها فأخذ يضطرم بنوازع مجهولة

مبهمة ، وتدرك لأول مرة أنها أنثى ، وأن عاصفة هوجاء تدفعها إلى التشبث بالرجل الجالس إلى جانبها ، لتجد تحت جناحه الدفء والأمن والنعيم . ما هذه النازعة الجامحة التى جرفتها ، وعبثت بها كما تعبث الرياح بأوراق الشجر ؟ وما هذا الطارئ المفاجئ الذى دخل قلبها بلا استئذان فاستبد بكل ما فيه ؟ أهذا هو الحب ؟ إن كان إياه كان شديد البطش ، سريع الأخذ ، جباراً لا يرحم ، وغازيا لا يبقى على جريح .

جلست عائشة إلى جانب المتنبي ذاهلة اللب مبددة الفكر ، ولكنها بعد حين استطاعت أن تجمع أشتات خواطرها وأن تنفض عنها قطرات الموجة التى غمرتها ، ثم اتجهت إلى المتنبي وقالت :

ـــ لعلك رأيت يا سيدى فى مصر ما يسليك عن الشام ؟

ـــ لقد كان عيشى بالشام رغيداً ، وكنت فى كنف ملك عربى مجاهد ، ولكن آدم ورث أبناءه السخط على النعيم ، وعلمهم مفارقة الجنان .

متى تسمعنا قصيدتك الثالثة ؟

ـــ حينما تسنح الفرصة ، وتهفو النفس إلى قول الشعر .

ـــ لو كنت أبا الطيب المتنبي ، أو لو كان لى بعض تلك الهبة الغالية التى أنعم الله بها عليك ، لملأت جنبات الوادى تغريداً ، ولزاحمت الطيور فى أوكارها ، ولهزت الأغصان فى أدواحها ، ولأسمعت النيل فى كل لحظة ألحاناً تكاد ترقص لها أمواجه ويقف تياره . عجيب شأنكم أيها الشعراء ! تضنون

بفيض الله على خلق الله . لقد منحتم هبة ما بذلتم فيها جهداً ، ولا مددتم لأخذها يداً ، وهى نبع لا يغيض ، وكنز لا يفنى ، وهبها لكم واهب الجود وخالق الوجود . ومع هذا تمر الأيام أو الشهور فلا نسمع لكم إلا بيتاً أو أبياتاً قصاراً ! إنى أعذر الشحيح بماله لأنه جمعه ببذل الجهد ، وإضناء الجسم والنفس ، وإراقة ماء الوجه ، ووصل الليل بالنهار ، فهو به ضنين ، وعليه حريص . أما أنتم فما عذركم فى الضن ؟ وما حجتكم على المنع ؟ ثم ابتسمت لأبى الطيب واستمرت تقول : دعنى أعاتبك يا أبا الطيب : أقمت بيننا أشهراً فما اهتزت شاعريتك لوصف ما ترى من روائع المشاهد ، ولا اجتذب نظرك جمال يوقظ فيك وسنان القريض ! أين من شعرك النيل وأمواجه ، وسفنه السابحات ، وهو يتهادى بين الشاطئين كالملك بين رعيته ، يجود على الأرض بمائه تبراً ، فتنثر عليه من أزهارها ياقوتاً ودراً ؟ وأين من شعرك تلك الأهرام العاتية التى لم ينحن ظهرها لعواصف الدهر وأحداث الزمان ، والتى لو تحدثت بأخبار الملوك الذين أقاموا فى ذراها ، والجيوش التى مرت بها ، لسمعنا حديثاً عجباً يهدى إلى الرشد ؟ أين من شعرك رياض مصر الباسمة ومروجها الفاتنة ، ونخيلها الباسقات ، وأدواحها الظليلات ؟ أحب يا أبا الطيب أن تكون شاعر الدنيا لا شاعر الملوك . أحب أن تصور لنا الحياة حلوة لذيذة كما نحب أن تكون . أحب أن يكون فى شعرك أمل اليائس ، وعلالة العاشق ، وسلوة الحزين ، وهداية الحائر . إن

الشعر دنيا جديدة خلقها الله للناس ليفروا إليها كلما ضاقت بهم دنياهم ، وجعل مفاتيحها فى أيدى الشعراء ، فافتح للناس يا سيدى من أبوابها ما ينقذهم مما هم فيه من بؤس وشقاء ! صوّر لهم جمال الحياة يا أبا الطيب تصويراً يحبب إليهم الحياة ، واخلق لهم من رائع خيالك كوناً جديداً فقد ضاق بهم على اتساعه هذا الكون اللعين .

كان أبو الطيب مطرقاً معجباً بما يسمع ، وكلما رفع بصره رأى جمالاً أعجب مما يسمع وأروع ، فثارت فى نفسه ثائرة واهنة القوى من الميل ، ولكنها لم تجد السبيل إلى قلبه المملوء بالمطامع والآمال . فاتجه إلى الفتاة وقال : إن فيما قلته كثيراً من الحق يا سيدتى عائشة ، غير أنك ظننت أن الشاعر يستطيع أن يقول كلما أراد ، ويستطيع أن يجيد كلما أراد ، وصوّرت الشعر نبعاً ليس على الشاعر إلا أن يملأ منه الوعاء ثم ينثره على الناس ، ومزماراً يكفى أن ينفخ فيه الشاعر فيأتى بأبدع الألحان . لا ياسيدتى إن الشعر صعب المرتقى ، بعيد الملتقى . إنه طائر حذر خدّاع ، طالما زحفت إليه على ركبتى ليلة كاملة فى خفوت وتؤدة ، ففرّ من يدى ، ثم سمعته عند الصباح يغرّد شامتاً مع طيور الصباح . ورب قافية أعالجها فى صبر وجلد كما يعالج الملاح سفينة فى بحر مائج ، فلا أكاد أظفر بها إلا بعد أن تكون قد تقطعت حبالى وتكسّر شراعى . ليس الشعر بالسهولة التى تظنينها ياسيدتى عائشة ، وإلا هان أمره ، وكسدت سوقه ، لأن قيمة كل شىء

بما يبذل فيه من جهد ، وكلما صعب منال الشيء غلا ثمنه وكثر التنافس فيه . أما أنى لم أصف مشاهد مصر ، ولم يهزنى نيلكم الفياض ، ولا هرمكم الرابض فى ذيل الصحراء ، ولا حدائقكم الزاهية الفيحاء ، فلو تعلمين ما بى لأقللت من ملامى . أنا فارس يا سيدتى قبل أن أكون شاعراً . ثم نظر إليها طويلاً وقال : أنا رجل جم المطامع بعيد المرامى . إن لى فى الحياة مطلباً أسمى ، طالما خفت أن يطغى عليه الشعر فيهدئ من عزمته ، ويقصر من وثبته ، وطالما خشيت أن أقنع عنه بالشعر فأخرج من هذه الدنيا ولم أعمل شيئاً إلا أن يقول الناس : كان أبو الطيب شاعراً مجيداً . أنا لا أريد هذا يا سيدتى . لذلك اقتصرت من الشعر على القدر الذى يكفى لبلوغ ذلك المطلب ، ونيل تلك الغاية . هذا سر لم أذعه إلا لك . ثم ابتسم وقال : واعلمى أنى لم أقصد الملوك إلا لأكون كالملوك . فنظرت إليه عائشة نظرة فيها ذهول وفيها حيرة وقالت : أنت بنيل هذه الآمال البعيدة حقيق يا أبا الطيب .

وهنا أقبل الجمع عليهما ، ومدت الموائد وفوقها كثير من ألوان الطعام ، فأكلوا بين الأفاكيه والطرف النادرة . ثم جيء بأوانى الشراب ، ومر السقاة على جماعة الشاربين ، فأبى المتنبى أن ينال من الخمر شيئاً ، وألح عليه القوم فلج فى الإباء ، وطلبوا من عائشة أن ترجوه أن يشرب فأبت ، واصطف القوم حول خمر المغنية فأصلحت عودها وغنت بقول ابن رشدين :

قل لمـــولاى منعـِما ... لِمْ هجرت المتيما ؟

أنت أعطشتني إليـ ـك وأبكيتني دما !

وكانت لؤلؤية الصوت ، حلوة المذهب ، فتملك الطرب القومَ ، وزادت النشوة فى صخبهم . والمتنبي هادئ مطرق ، كأنه لا يشعر بما حوله . ثم طلب منها الجمع أن تغنى بشعر لابن أبى الجوع فانطلقت تغرّد :

يا أطهر الناس روحا وأطيب الناس راحـا
هات اسقني أو تراني لا أعرف الأقداحـا

فهاج القوم من الطرب ، وقذف بعضهم بالعمائم ، وقام سكران يلحّ على أبى الجوع فى أن يشرب حتى لا يعرف الأقداح ثم غمز ابن رشدين لخمر بعينه متجهاً نحو المتنبي فأخذت تصدح :

لبسْنَ الوشيَ لا متجملات ولكن كى يصنّ به الجمالا
وضفرن الغدائر لا لحسنٍ ولكن خفن فى الشعر الضلالا

وكان القوم يتمايلون معَ الأنغام ، لجمال المعانى وحسن الإيقاع . والتفتت عائشة إلى المتنبي وهمست :

— هذا غزل من القلب يا أبا الطيب ، وليس تصوير فنان فحسب ، لأنى أحسّ فيه حرقة العاشق . فالتفت إليها وقال :

— هذا شعر الشباب يا سيدتى فضحكت فى دهش وقالت :

عجيب أن تدّعى مفارقة الشباب وأنت لا تزال فى ربيع الشباب الزاهر .

— ولكن مطامعى تغرى بى الشيب والهرم ، فأسرعت تقول :

— دع مطامعك الآن لأننا لم نتبذّل هذه الليلة إلا لنذهب عنك الوحشة والهموم .

ـــ جزاك الله خير الجزاء يا سيدتى . وبعد أن طال به المقام طلب الإذن بالانصراف ، فقام الجمع احتفاء به ، وأمر ابن رشدين عبيده بالسير فى ركابه ، وخرج مشيّعاً بالإجلال .

وتفرّق القوم ، وانفض سامر اللهو ، وصعدت عائشة إلى حجرتها لتستريح بالمنام إذا ظفرت بالمنام . ولكنها جلست فى سريرها ذاهلة اللب ، مروّعة القلب ، تتقاذفها الأوهام ، وتعبث بها الظنون ، ما هذا الهجوم العنيف الذى غزا فؤادها دون أن تعد له العدة أو تأخذ الأهبة ؟ لقد كانت طول حياتها تعتز بأن قلبها حصن لا ينال ، ونجم لا تمتد إليه أمنيات الخيال ، وتفاخر بأنها برئت من غرائز النساء التى تدفعهن إلى الاستجابة إلى إشارات الرجال الآثمة ، وأعينهم الخائنة . تلك الغرائز التى تبيع الجمال رخيصاً ، وتمزق الحياء كما يمزق البرق حجب الغمام . كانت تخالط الرجال وتجالسهم فى مجالس اللهو حيناً ، وفى مجالس الأدب أحياناً ، وهى كأنها الملك السماوى الطاهر ، الذى خلقه الله من نور ، وطهّر قلبه من وساوس الإثم ودنس الشهوات . فكانت العيون تغضى أمام جمالها إجلالاً ، والنفوس تسجد عند مشاهدتها خشية وخشوعاً ، ولم يخل مجلس من تحدث الناس بطهارتها وعفافها ، وصون جمالها البارع من أن تمتدّ إليه يد طامع . وكانت نساء المدينة وبناتها ـــ على رغم الحقد الذى يأكل قلوبهن ـــ لا يملكن إلا أن يطأطئن لهذا الجمال المترفع عن أن ينزل فى سوق المساومات ، أو تنهشه أعين الخاطبات .

وكم حام الشبان حول قدسها فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون . وكم بذل أبو بكر بن صالح — أعظم رجل فى الدولة بعد ابن الفرات — من وسيلة ، وكم ساق من رجاء ، وكم تساقطت دموعه على قدميها ، فلم يجد منها إلا الرفض والجفاء .

طافت هذه الخواطر بعائشة وكانت تودع كل موكب من مواكبها بدمعة حزن وزفرة أنين . ثم عادت تقول :

ماذا جرى لعائشة النافرة الشموس ؟ كيف ذلت لسلطان هذا الرجل ؟ وكيف قذفت بكبريائها لتلاقى من كبريائه صخراً أصم ، لا تزعزعه عواصف الغرام . إنها فتحت له قلبها هذه الليلة فأغلق فى وجهها كل باب . وبدا من جمالها ما يكفى لإثارة إلى الهول ، ولكنه ظل بجانبها جامداً كأنه كان ينظر إلى عجوز ورهاء ، ويلى من الحب ويلى ! لقد صنته عن كل محب معمود يستعذب الموت فى حبى ، لأقذف به بين يدى شاعر لا يحس ! رفضت الجاه والمال والشباب والوسامة لأبيع نفسى رخيصة مزجاة لرجل جوّاب آفاق جاوز الأربعين ! ثم من هذا الرجل ؟ إنه ينظر إلىّ كما ينظر إلى لعبة لم يحكم صنعها ، ويستمع لى كما يستمع لبعوضة تطن ، ويستدبر محراب حسنى كافراً جحوداً ، لا يؤمن بجمال ولا تهزه عاطفة . ويلى من الحب ويلى ! ماذا يقول الناس ؟ وبم تتحدث السوامر ؟ سأكون سخرية المجامع ، ومتندر المحافل ، وسيقول النساء إن عفافها كان رياء ، وتبتلها كان ميناً وزوراً . ثم أطرقت طويلاً ورفعت رأسها كأنها

أفاقت من حلم مزعج وقالت :

ومالى أهتم بحديث الرجال وثرثرة النساء ؟ إننى أحببت رجلاً عظيما ، وتعشقت فنا رفيعاً ، إننى نفرت من جمال المادة المظلمة ، إلى جمال الروح الوضاءة . إننى لا أحب العيون الدعج ، ولا الحواجب الزج ، ولا الثغر اللؤلؤي ، ولا القوام السمهري ، ولكنى أحب العبقرية المتلألئة ، والنبوغ الفاتن ، والرجولة الوثابة ، والنفس الطموح . إن أحمد بن الحسين رجل لا كالرجال ، فليس بدعاً أن يكون حبى له حباً لا يشبهه حب ، ولا يماثله غرام . وإذا كان قلبه اليوم لا يستجيب للحب فإن طول المعاشرة قمين بأن يلين قياده ، ويروض صعبه ، حتى يصبح طيعاً ذلولاً . إنه بعد الليلة سيكثر من زيارتنا وسيجد من الأنس بنا ما يرسل نفسه على سجيتها ، ويطلق عواطفه المكبوتة ، والزمان طبيب كل شيء فى هذه الدنيا ، وقاهر كل جبار ، حتى لو كان أبا الطيب المتنبي . ثم أغمضت عينيها فسبحت فى عالم فسيح من الأحلام .

ومرت الأيام وكان أبو الطيب يمر بين الحين والحين بدار ابن رشدين ، ويجد من رقة عائشة وأدبها وروعة جمالها ما يملأ قلبه سروراً . وجلس مرة إليها يسمعها قصيدته التى سينشدها كافوراً ، فلما بلغ قوله :

كم زورة لك فى الأعراب خافية
أدهى وقد رقدوا من زورة الذيب

أزورهم وســوادُ الليــل يشفع لى
وانثني وبياضُ الصبح يغرى لى

نظرت إليه وقالت : متى كانت هذه الزورة يا أبا الطيب ؟
فالتفت إليها باسماً وقال : هذه زورة الخيال يا سيدتى . فإن رجلى لم تحملنى مرّة إلى فاحشة ، فضحكت وقالت : صدق الله العظيم : « والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون » ثم انطلق يقرأ حتى إذا بلغ قوله :

ما أوجــهُ الحضر المستحسناتُ به
كأوجــه البــدويات الرعابيب

حسنُ الحضــارة مجلوب بتطرية
وفى البــداوة حسن غير مجلوب

صاحت عائشة فيما يشبه الهلع وقالت : انظر أبا الطيب ، فهل ترى فى وجهى تزييناً أو تطرية ؟ فأطرق قليلا ، وكأنه ظن أن حديث الأدب سينحرف إلى غير وجهه ، وقال :

ـ إن حسنك من صنع الله يا سيدتى ، وأرجو أن يصونه الله .
ـ إن هذا الحسن يهيم بحسن آخر لا يرى بالعين .
ـ يهيم بحسن لا يرى بالعين ؟
ـ نعم يهيم بحسن الروح وجمال العبقرية .
ـ هذا خير أنواع الحب .
ـ ولكن صاحب هذه العبقرية نفور شامس لا يريد أن يلقى عناناً . فأطرق المتنبي ثانية وقال :

ــ يا عائشة إن قلبي نهبته المطامع ، وتقسمته الآمال ، وأخشى ألا يجد فيه الحب متسعاً للهو والمرح .

ــ إن حبنا حب قدسي ملائكي ، ليس فيه إربة للهو والمرح .

ــ لقد كنت دائماً أذود عن طائر الحب خشية أن يصدنى عما يعتلج فى نفسى من مطامح ، وحينما رأيتك أول مرة التمع فى قلبي بصيص من الهوى فأخمدته ، وصاح صوت فى أعماق نفسى فأسكته ، ذلك لأننى رجل وهب حياته للمجد ، وألقى بنفسه بين شفار السيوف .

تغرب لا مستعظماً غـــيرَ نفسه
ولا قابلاً إلا لخالقـــه حـــكما
ولا ســـالكاً إلا فـــؤاد عجاجة
ولا واجـــداً إلا لمـــكرمة طعما
يقولون لى ما أنت فى كل بلدة ؟
وما تبتغى؟ ما أبتغى جل أن يسمى!

ــ إنى لا أحبك إلا لهذا ومثله . أحبك حباً عذرياً قدسياً تنزه عن دنس الدنيا ، وسما فوق كل مأرب ، فهل تعاهدنى على هذا؟

ــ أعاهدك يا سيدتى ، إن مثل هذا الحب هو الذى طلبه أكثر الناس فلم يجدوه فزهدوا فى الدنيا ، وزهدوا فى الحياة . وإن مثل هذا الحب هو الذى ينفخ فى المرء روحاً علوية تدفع به إلى عظائم الأمور ، وتنير له طريق المجد ، الآن أصبحت مصر لى جنة بعد أن كانت جحيما ، والآن أجد ما يعزينى فى هذه النكبة

الفادحة ، التى قذفت بى إلى مصر لأمدح الأسود .

وبعد قليل خرج وعطفه يهتز تيهاً ، ووجهه يفيض بشراً ، ولعله كان يقول :

يردُّ يــداً عن ثوبهـا وهو قادر
ويعصي الهوى فى طيفها وهو راقد

دسائس

مرت شهور والمتنبي ينعم بحبه ويكثر من ازديار صاحبته ، وشاع بين الناس أمر حب عائشة له ، وتحدث بذلك الأدباء فى مجالسهم . ودهم الخبر أبا بكر بن صالح فصعق له ، وغلى مرجل غيظه ، وكان ذلك حين دخل عليه ابن الفرات يوماً وهو يقول باسماً :

— لقد طار عصفورك من القفص يا أبا بكر .

— ماذا تقصد يا جعفر ؟

— أقصد أن نسراً جارحاً طار إلينا من الشام ، ثم ما زال يحوم حول العصفور حتى اختطفه ، وأنشب فيه مخالبه .

— أفصح بالله يا ابن الفرات .

— إن المتنبي سبى قلب عائشة ، أو هى التى سبت قلبه ، وقد علمت أنهما يلتقيان فى دارها كل مساء ، لرواية الشعر والتحدث فى الأدب .

— ممن علمت هذا ؟

ـــ من أهل مصر جميعاً ، فإن الأمر لم يعد سراً ، وإن الصبيان فى الأزقة يتغنون بهذا الحب ، ويلفقون له أغانى وأهازيج يترنمون بها : أفق يا أبا بكر فما يوم حليمة بسر .

ـــ العابثة الماجنة ! لقد قلت حينما ازدرت حبى ، وسخرت من دموعى ، إنها امرأة شاذة لا إربة لها فى الرجال ، فكيف تهفو الآن إلى هذا الأفاق ، وتبذل له أغلى كنوز مصر ؟ ويل لهما منى !

ـــ رفقاً بالفتاة يا أبا بكر ، فإن قلوب النساء من قوارير ، وصعب النساء إلى مياسرة ، كما يقول أبو نواس الخبيث ، وماذا تفعل أية فتاة حيال إغراء شاعر فتاك يمزق أفئدة النساء كما يمزق رسالة طال عليها العهد ؟

ـــ لا بد من الانتقام من هذا الوغد اللئيم .

ـــ وكيف ننتقم منه ؟

ـــ الأمر فى غاية اليسر ، فإن فى شعره الذى يتبجح بالإجادة فيه حبالاً تكفى لخنقه .

ـــ كيف ؟

ـــ هذا ما ستعرفه يا ابن الفرات . أين مولانا الأستاذ الآن ؟

ـــ فى قاعة الحكم .

ـــ هلم بنا إليه . وانطلقا مسرعين وأبو بكر يتحرق غيظاً ، وابن الفرات يبتسم فى شماتة ، لدنو ساعة انتقامه من المتنبى ، لأنه تعاظم عليه ، وتسامى عن مديحه . ودخلا على العبد فابتسم

لهما ابتسامة الأفعى . ثم قال :

— أهلاً بالوزيرين ! هل من حاجة ؟ فانطلق أبو بكر يقول هذا المتنبي الشاعر يا مولانا أخشى أن يثير قدومه علينا شرًّا مستطيراً .

— وأين عيونك وجواسيسك ؟ وأين أصحاب الأخبار الذين تباهي بأنهم يعلمون همسات الصدور ، وخلجات الخواطر ؟

— من هؤلاء يا مولانا علمت كل شيء .

— ماذا علمت ؟

— علمت أنه يتصل فى السر بفاتك عدوّك اللدود ، وأن الرسل بينهما جائية ذاهبة ، وأنه اجتمع به منذ أيام فى الصحراء بين مصر والفيوم ، فى جنح الليل البهيم ، وأنه جرت بينهما محادثات ، وأخشى أن أقول مفاوضات .

— فاتك المجنون ؟

— نعم يا مولانا هو فاتك نفسه الذى حاول أن ينازعك الملك والوصاية على ابن مولانا ، فنفيته إلى الفيوم .

— وفى أى شىء يفاوضه هذا الشاعر ؟

— يفاوضه فى الملك . يفاوضه على أن الدولة تكون بينهما بالسوية : لفاتك قيادة الجيوش ، ولهذا الأفّاق حكم البلاد وسياستها .

وهنا اكفهر وجه كافور ، وأخذته رعشة من الغضب حاول كبتها . ثم قال :

— وأين يذهب كافور ؟

— هذه يا مولانا أوهام لا يمكن أن تحقق ، وإن سيوفنا وقلوبنا سورٌ حول عرشك الكريم .

— هذا المتنبي لم يفتر منذ قدم علينا من مضايقتنا ، والإلحاح علينا فى أن نوليه ولاية ، كأنه جاء إلى مصر فاتحاً لا شاعراً مستجدياً . لقد أكرمنا وفادته ، وأجزلنا له الصلات ، ونثرنا فوقه الذهب والفضة ، ولكن شيئاً من هذا لم يقنعه ، ولم ينهنه من عزيمته . وإنى أعرف هذا الصنف من المخاطرين إنه — فيما يزعمون — ادّعى النبوة ، وهل يصعب عليه إذا نال ولاية أن يدعى ملك مصر كلها ؟ !

— إن كل قصيدة له فى مدح مولانا ليست إلا إلحاحاً فى طلب هذه الولاية ، ولا يقصد اللئيم من هذا إلا أن يصارح الناس بأن مولانا لا يستحق المدح ، وأنه إنما دفع إلى مدحه ليتوصل إلى مآربه . ثم إنه يتدرج فى شعره مطالباً بهذه الولاية تدرجاً خبيثاً ، وأعتقد أن مرماه البعيد أن يجعل من هذه الولاية ذريعة لالتهام مصر . يقول أولا :

يأيها الملك الغانى بتسمية
في الشرق والغربّ عن وصف وتقليب
أنت الحبيب ولكنىّ أعوذ به
من أن أكون محباً غير محبوب

ثم يلحف فى قصيدة أخرى فيقول :

فإن نلتُ ما أملت منك فربما شربت بماء يُعجز الطير ورده

وو عـــدك فعلٌ قبـــل وعد لأنه
نظير فعال الصادق القول وعـــده
إذا كنت فى شك من السيف فابله
فإمـــا تُنفيـــه وإمـــا تعـــدُّه
وما الصارمُ الهنـــدىُّ إلا كغيره
إذا لم يفـــارقه النجـــادُ وغمده

ثم تدفعه العجلة وتزجه المطامع إلى أن يقول فى قصيدة أخرى :

ولو كنت أدرى كم حياتى قسمتها
وصيرتُ ثلثيهـــا انتظـــارك فاعلم
ولـــكن ما يمضى من العمر فائتٌ
فجـــد لى بحـــظّ البادر المنغنم

وقد بلغ القمة فى الإلحاح وسوء الأدب فى حق مولانا فى قصيدة عيد الفطر حين يقول :

أبا المسك هل فى الكأس فضل أناله
فإنى أغـــنى منـــذ حين وتشرب ؟
وهبت على مقـــدار كفى زماننـــا
ونفسى على مقـــدار كفيك تطلب
إذا لم تُنـــط بى ضيعة أو ولايـــة
فجـــودُك يكسونى وشـــغلك يسلب

فالتفت كافور إلى ابن الفرات وقال : ما رأيك فى هذا الشعر ؟

— هذا شعر لا يسمعه سامع إلا اعتقد أن مولانا بخيل على شعرائه وقصّاده ، وأن شاعره فى غاية الجرأة عليه والاستهانة بمكانته .

— إنه رجل قليل الأدب .

— ثم إنى أعتقد يا مولانا أن هذا الرجل يلبس بيننا غير ثوبه ، وأنه جاسوس أرسله إلينا ابن حمدان ليطلع على أسرار دولتنا ، وينقل إليه مواطن الضعف فيها . وابن حمدان لا ينسى هزيمتكم له فى دمشق ، وهو — وقد أكل قلبه الحقد — يريد أن يثأر لنفسه ، وأن يمهّد بجيشه سبيلا لفتح مصر .

— ذلك أبعد إليه من نجوم السماء .

— من غير شك . ولكن ما معنى أن يدّعى هذا الشاعر أنه غاضَبَ سيف الدولة ، وناصبه العداء ، وفرّ من حلب تحت أستار الليل ، ثم لا يكاد ينشد قصيدة أمام مولانا إلا وفيها حنين لسيف الدولة ، وأسف على فراقه . إن هذه فى رأيى بدَوات طفرت من الشاعر بعد أن بالغ فى كتمانها فظهرت على الرغم منه فى فلتات لسانه . ففى أول قصيدة أنشدها أمام مولانا ترك مصر وصاحبها واتجه بتشوقه وهيامه إلى حلب وصاحبها .

ثم جرى بعد ذلك فى شعره على هذا النسق فهو يقول :

فراقٌ ومن فارقتُ غير مذمَّم
وأمٌّ ومن يممتُ خير ميمم
رحلتُ فكم باكٍ بأجفان شادن
عليّ وكم باكٍ بأجفانِ ضيغم
وما ربةُ القُرطِ المليحِ مكانُه
بأجزعَ من ربِّ الحسام المصمم
فلو كان ما بى من حبيب مقنع
عذرتُ ، ولكن من حبيب معمم
رمى واتّقى رميي ، ومِن دون ما اتقى
هوًى كاسرٌ كفي وقوسى وأسهمى

ثم يرمى بآخر قناع فيقول وكأنه يخاطب ابن حمدان :

أغالبُ فيكَ الشوقَ والشوقُ أغلبُ
وأعجبُ من ذا الهجر والوصل أعجب
أما تغلَط الأيسام فىّ بأن أرى
بغيضاً تُنائى ، أو حبيباً تقرب ؟
عشيةَ أحفى الناس بى من جفوته
وأهدَى الطريقين التى أتجنب

أتعرف يا مولانا من أحفى الناس به ؟ هو ابن حمدان . وهل يعرف مولانا أهدى طريقيه التى يتجنبها ؟ هى طريق حلب .

— ويل للمرائى الفاجر ؟ لقد كنت أظن أن الإنسان عبد

الإحسان ، ولكن يظهر أن من الناس من تطغيهم النعمة ، وتبطرهم المودة . وكل هذا الشعر لا يساوى عندى هذه الذبابة الحائرة فوق زجاج النافذة ، فإنى لا آبه له ، ولكن الذى يهمنى حقاً تلك المؤامرة التى ينسج خيوطها مع فاتك . خذ حذرك يا أبا بكر وابعث جواسيسك حول الفيوم ، وفى حواشى الصحراء ، واجعل على كل عابر عيناً حتى لا يمر طائر بين البلدين إلا عرفته . أما أنا فسأظهر للشاعر كأننى لا أعلم شيئاً ، وسأبالغ فى إكرامه حتى تهدأ نفسه ويطمئن ، فإننا نخشى أن يفلت من أيدينا . ومن الحكمة أن نعتقله من حيث لا يشعر ، وأن نجعل له قيوداً من الذهب لا من الحديد . إنه لو فرّ منا كما فرّ من ابن حمدان الأحمق لملأ الأرض بهجائنا ، ولأصبح اسم كافور سُبّة الأبد، وأضحوكة الأجيال . أبسط له وجهك يا ابن الفرات ، وانثر الحب لطائرك حتى يقع فى الفخ .

وما كاد يتم عبارته حتى دخل الحاجب يقول إن المتنبى يطلب مقابلة مولانا . فالتفت كافور إلى وزيره وهو يغمز بعينه فى ابتسامة ماكرة ، وقال : دعه يدخل .

دخل المتنبى فقابله كافور ووزيراه بحفاوة ، فلما اطمأن به مجلسه قال :

ـــ لقد بعث إلى أبو شجاع فاتك يا مولانا منذ قدمت مصر برسائل محبة وترحيب ، ثم والى على من هباته وصلاته ما أثقل ظهرى ، وأوهن كاهلى ، حتى رأيت أن ترك مديح مثله لؤم

لا يليق بمثلي . لهذا جئت يا مولانا أستأذنك فى مديحه وأداء هذا الدين ، الذى أصبحت لا أستطيع احتماله . فهل يأذن مولانا لشاعره بأن يشدو بمديح أحد رجاله المخلصين ؟

فالتفت كافور إلى ابن الفرات ، وغمز بعينه بحيث لا يرى ، وقال :

ـــ ما عليك من بأس يا أبا الطيب . فإنه يسرني أن يستحق أحد قوادى مديح مثلك . قل فيه يا أبا الطيب ما تشاء ، وأجد ما طاولتك الإجادة .

ثم اتجه إلى ابن الفرات وقال : لقد جاءتنى اليوم رسالة من أهل صيداء يشكون فيها من واليهم ، ويعددون مظالمه ، وأخشى أن يكونوا فى شكايتهم صادقين فقد سمعت من قبل كلاماً كثيراً يدور حول هذا الوالى وأنه يعبث بالحقوق ويأخذ الرُشا . أسمعت بشيء من ذلك يا جعفر؟

ـــ نعم يا مولانا . وقد حاولنا إصلاحه بالنصيحة والصبر ، فكاد يفسد علينا أمرنا بالتمادى فى ظلمه . وهنا التفت كافور إلى المتنبي وقال : ما رأيك فى ولاية صيداء ؟ إنها ولاية واسعة وافرة الخيرات .

فكاد المتنبي يطير من فوق كرسيه فرحاً ، ووقف خاضع الرأس أمام كافور كأنه الراهب فى محرابه ، وطفق يقول :

ـــ إننى سأكون أعدل وال لها ، وأوفى وال لك يا مولانا .

فابتسم كافور وقال : سننظرّ فى الأمر يا أبَا الطيب والأمور

مرهونة بأوقاتها . وسيكون كل شيء خيراً إن شاء الله .

وانصرف المتنبي وهو يكاد يخرق الأرض بقدميه تيهاً وكبراً ، ويملأ الفضاء بصدره المنتفخ زهواً وعجباً . إن هذه النخيل التي يداعبها الهواء في طريقه إنما تميل نشوى للنبأ العظيم ! وقمم المقطم المطلة عليه إنما تمد آذانها لتتلقف الخبر الخطير ! والأهرام ما صمدت لعوادي الزمان طيلة هذه القرون إلا انتظاراً لذلك المجد الباذخ ! والنيل لم تتهامس أمواجه إلا بأنباء هذا الحادث الجلل ! إنه قدم مصر لأجل هذا . وتدلى إلى مدح الأسود لأجل هذا . ولاقى صنوف الاضطهاد من عظماء مصر وعلمائها لأجل هذا . ولا شك أن العزة لا تنال إلا بشيء من الذل ، والعظمة لا تقتنص إلا بخضوع النفس . لقد كان مصيباً حقا حينما هجر سيف الدولة وقصد كافور . ولطالما ظن أنه ضل السبيل ، وتنكب الصواب ، وأنه باع نفسه للأبالسة ، وأن الأسود إنما احتال لاجتذابه إليه ليجرد سيف الدولة من أمضى سلاح هو سلاح الشعر ، الذي تعتز به الدول ، ثم ليحتبسه في مصر شاعراً ذليلاً مأجوراً . لطالما ظن هذا ، ولطالما عنف نفسه ، ولطالما جلس في فراشه في الليل البهيم وهو يقلب كفيه أسفاً ، ويرسل أنفاسه حسرات تلو حسرات ، ولطالما صور له الخيال أن الأسود يعبث به ويمنيه الأماني كذباً وزوراً ، وأنه يشد رقبته بخيط من الوهم ، ويرقصه في مجلسه على أنغام آمال هي أبعد من مناط الثريا ، وأكذب من هذيان الأحلام . لقد ظلم العبد . لقد كان

العبد مظلوماً حقاً . إنه رجل وفى صادق أمين . إنه كان يطاوله ليختبره ويبلوه ، والولايات شأنهن عظيم . ولا تكفى أشهر لاختيار من يصلحون لها . فالآن وقد درس نفسي ، وألم بنواحى عظمتى ، أخذ يعلن ما أخفى ، ويجهر بما كتم . ثم وقف المتنبي عن حديث نفسه ومال برأسه قليلاً ، شأن المفكر فى أمر مفاجئ ، وقال : ولكن ماذا سيكون أمرى مع فاتك الذى عاهدته فى الصحراء على أن أكون له عوناً فى انتزاع الملك من كافور برأيى وسيفى وشعرى ، ووعدنى بأخصب ولايات مصر وأدرها خيراً ؟ فى الحق إنى تعجلت المفاوضة مع فاتك ، وكان من الحزم أن أصبر قليلاً حتى أيأس تمام اليأس من كافور . ولكن مالى أبيع حاضراً بغائب ؟ ومالى أطلق أملاً فى يدى لأنتظر أملاً حائماً ؟ ومالى أضيع حقيقة واقعة بوعد موهوم ؟ لا لا إنى سأخلص لكافور وسأكون أوفى خلصائه وأصدق أمرائه .

وبينما هو فى الطريق إذ التقى بصديقه عبد العزيز الخزاعى ، فحياه تحية المحب المشوق ، ثم سأله :

— من أين وإلى أين ؟

— قدمت بالأمس من بلبيس لزيارتك ، وعرض لى أن أزور فى الصباح شيخ الشافعية عبد الله الناصح بالجامع العتيق ، وقد كنت الآن قاصداً إلى دارك .

— وماذا رأيت فى الجامع العتيق ؟

— يا أبا الطيب يجب أن تتقى علماء هذا الجامع ، ويجب

أن تتقى منهم خاصة هذا العالم الموسوس أبا بكر الكندى الذى يلقبونه بسيبويه .

ـــ وماذا أعمل له ؟

ـــ تخفض جناحك ، وتنهنه من كبريائك قليلا . إن مصر يا أبا الطيب ليست كحلب . إنها عش العربية ، وموطن العلم والأدب . فإذا كنت فى حلب قد أرسلت أشعارك على فطرتها جريئاً غير هيّاب ، ففكر هنا ألف مرة فى كل بيت تقوله .

ـــ ماذا تريد بهذا يا ابن يوسف ؟

أريد يا سيدى أن أكون لك ناصحاً ، وإن غلظ عليك نصحى . وأريد أن أقول : إننى حينما دخلت الجامع فى هذا الصباح ، رأيت حلقة من الطلاّب غاصة بمن فيها حاشدة ، وقد توسطها أبو بكر الكندى وهو يصيح : اسمعوا يا أهل الفهم والمعرفة ما يقوله شاعرنا الجديد ! اسمعوا ما ابتكره فى فن المديح هذا المتنبى الكاذب ! إنه لا محيد له عن إحدى خلتين : إما أنه يسخر من عقول أدباء هذا البلد ، ويرى أنهم أغبى من أن يدركوا ما يقول ، وإما أنه سخيف أبله لا يعرف مراى الكلام . وهنا ضجّ المجتمعون صائحين : قل أبا بكر ولا تطل علينا . أسرع يا صاحب الحمار . هات ما عندك . فعاد يقول : يمدح هذا المتنبى مولانا بقوله :

وما طربى لمـــا رأيتُـــك بدعـــةً
لقد كنتُ أرجو أن أراك فأطربُ

أرأيتم شاعراً منذ أن قال امرؤ القيس : « قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل » قال لممدوحه : إنني لم أعجب لطربي عند رؤيتك أيها الأمير ، لانني كنت أؤمل أني سأملأ الدنيا ضحكا حين أراك . إن المتنبي أيها الطلاب قدم إلى مصر ليفرّج عن نفسه برؤية أميرنا المضحك ! إنه ــ جزاه الله بما يستحق ــ جعل من أميرنا قرداً يتزاحم الناس عليه ليروا ألاعيبه فيطربوا ويضحكوا . وهنا أغرق القوم في الضحك والجلبة ، وارتفع صوت خبيث منهم يصيح : إن الأمير لا يفهم هذا الكلام الموجه وعلى علمائنا أن يفهموه ، حتى ينـــال هذا الرجـــل ما يستحق . وما كاد يسكت حتى مدّ أبو بكر ذراعيه طالباً السكوت؟ وقال : ثم من علّم هذا الشاعر العربية حين يقول :

« لقد كنت أرجو أن أراك فأطرب ؟ »

فيرفع الفعل « أطرب » وهو منصوب لا مناص . لأنك إذا جعلت الفاء عاطفة وجب نصبه بالعطف ، على أراك ، وإن جعلتها للسبب وجب نصبه بأن مضمرة . فكيف ساغ لهذا الرجل رفعه ؟ فصاح طالب : قد يكون الفعل معطوفاً على « أرجو » وهو مرفوع . وهنا قهقه الشيخ حتى سقطت عمامته ، وأجاب : هذه حيلة العاجز يا ولدى . لأن الطرب مترتب على الرؤية لا على الرجاء .

ولم أطق يا أبا الطيب أن أصبر على استماع أكثر من هذا ، فأسرعت بالخروج من هذا المسجد . تدبر أيها الأخ في أمر

تسكت به هذا المجنون . فإن الناس ينقلون أخباره ونوادره ، وإذا وصلت هذه الأخبار إلى القصر ساءت العقبى .

كان عبد العزيز يحادث المتنبي وهو سابح فى بحر من الفكر عميق ، وقد اصفرّ لونه ، واختلجت عضلات وجهه ، لأنه فى الحق كان يخشى أن يفسد عليه هؤلاء السفهاء أمره مع كافور ، بعد أن بلغ لديه منزلة الرضا ، وأصبحت الولاية منه قاب قوسين ثم اتجه إلى عبد العزيز وقال :

— سيكون لى مع هؤلاء شأن آخر . وربما أسكتهم عنى بعد أيام سكوتى عن قول الشعر جملة واحدة .

— كيف ؟ فابتسم وقال :

— ستعلم ذلك قريباً يا ابن يوسف . هلم بنا إلى دار ابن رشدين . وانطلقا حتى بلغا الدار فلقيا بها صالحاً والشريف إبراهيم العلوى . وأقبلت عائشة مسرعة وكأنها البدر المشرق زحزحت عنه حجب الغمام . وكان المتنبي على غير عادته باش الوجه ، منبسط النفس . فابتدره الشريف سائلاً : أين كنت هذا الصباح يا أبا الطيب ؟

— كنت عند كافور أستأذنه فى مدح فاتك . فأطرق الشريف طويلاً ثم قال :

— لقد تعجلت فى هذا يا أبا الطيب . إن كافوراً لا يبغض فى مصر إلا رجلين : ابن سيده وفاتكا . وقد نهى أن يذكر أحد فى قصره اسم فاتك إلا أن يأتيه البشير بموته ، وحينئذ يسوغ

للبشير أن يقول له : مات فاتك . فكيف بحقك قذفت بنفسك في هذه الهوة ، وألقيت بها في هذا المأزق ؟ وبم أجابك ؟

فبهت المتنبي وتلعثم ، وقال : أذن لي بمدحه .

— وهذه هي الطامة الكبرى ، وهذا هو الشرّ المستطير ، والبرق الذي يسبق الرعد ، والسكون المخيف الذي يتقدم العاصفة . إن الهر الخبيث يداعب الفأر قبل أن يثب . والثعبان الماكر يهز رأسه لفريسته قبل أن ينقض عليها . فأسرعت عائشة في وجل وهي تصيح : ماذا تقول يا سيدي ؟

— إن الرائد لا يكذب أهله يا عائشة . ولقد علمت من دهاء هذا العبد وحيله ما فيه العجب العجاب .

— كيف بالله ؟

— لقد عودنا هذا الكافور أنه لا يضحك إلا إذا نوى الغدر ، وعهدناه لا يلقي لصيده الحبل طويلا إلا ليرتكس فيه . وهنا وثب المتنبي واقفاً وهو يقول :

— لقد بالغت في سوء الظن بكافور يا سيدي : إنه وعدني اليوم بولاية صيداء . فأسرع عبد العزيز سائلا :

— بعد أن استأذنته في مدح فاتك ؟ !

— نعم . فقال الشريف :

— هذا يؤيد رأيي ، ويحقق في الأسود سوء ظني . وكيف جاء ذكر هذه الولاية ؟

— قال كافور : إنه وصلت إليه رسالة من أهل صيداء

يشكون فيها من واليهم ، ويصفونه بكل ما يشين . وأيد ابن الفرات شكواهم ، وأنه نصح لهذا الوالي كثيراً فلم يرعو عن غوايته . وحينئذ التفت إلى كافور باسماً ، وسألني عما أرى في ولاية صيداء ، فقبلت وشكرت .

— هل أسند الولاية إليك بالفعل ؟

— كأنه أسندها إلى لأنه قال إنه سينظر في الأمر . وإن الأمور مرهونة بأوقاتها : فغمغم الشريف في ألم وحسرة وقال .

— كل هذا كذب من الأسود وخداع . فلا ظلم الوالي أهل صيداء ، ولا شكا أهلها من واليهم ، ولا عزم كافور على عزل الوالي وتوليتك مكانه . ولكنه ماهر في ابتكار الكذب وارتجال الأخاديع . ولو كنت لا أعرف هذا الوالي لعلمت من أسلوب العبد في تناوله هذه الأمور أنه كاذب مائن ، أما وأنا به جد عليم ، وأعرف من أخلاقه وسيرته ما يرفعه إلى مرتبة العمرين ، فلا يخالجني شك في أن الرجل خدعك بهذه الأخلوقة ، والله وحده يعلم ما وراءها من كيد ومحال . وأكبر الظن أن بعض أعدائك دس لك عنده ، لأن هذه المجاملة ، وهذه الموادعة ، لا تفسر عندي إلا بهذا . فخذ حذرك يا أبا الطيب . وكن معه كلاعب النمر ، يقرب منه والخنجر لا يفارق يمينه . أما الولاية وأشباهها فأضفها إلى خيال الشعراء ، فإن الرجل في هذه الناحية أمهر شاعر . وهنا تململ المتنبي وقال حانقاً :

— إن بيني وبينه أيام إن لم يف بوعده فيها عرفت أنه

كاذب أفاك ، وفى شعرى علاج ناجع لأمثال هؤلاء .

— احترس أبا الطيب ، وقدر لرجلك قبل العلو موضعها ، فإن الصل المصرى لا تنفع فى لدغته الرقية ، ولا يجدى الدواء ، وجامل الرجل حتى تجد من يديه مخلصاً .

بدا الغم والحزن على وجه المتنبي ووجوه أصحابه ، وتنهدت عائشة وقالت فى صوت خافت : لعل شدة خوف الشريف على سلامتك يا أبا الطيب هى التى دفعته إلى أن يصور لك الخطب جسيما ، والأمر عظيما ، فانضبج عنك الخوف ، فقد يكون الوهم قد لعب بنا فخيل إلينا أن الهر أسد ضرغام . فأسرع الشريف قائلا :

— لا يا سيدتى عائشة . إن الأسود ماكر محتال بعيد الوثبة ، فمن الخير لنا ولأبى الطيب أن نكشف له الطريق . ثم خاض القوم فى حديث آخر ، والمتنبي ذاهل فى مهامه من الفكر ، كلما خرج من فلاة تلقفته أخرى ، ثم استأذن فى الانصراف ، فخرج ومعه عبد العزيز الخزاعى . حتى إذا بلغا الدار أخذ المتنبي فى خلع ثيابه وهو يسأل عبد العزيز :

— ما رأيك فى حديث الشريف ؟

— أكبر الظن أنه يقول الحق .

— أخشى أن يكون قد طوح الخيال به قليلا .

— إذا كان فى حديثه بعض التهويل فإنى أعتقد أنه لم يعد الحق .

— بيننا وبين الأسود أيام إن لم ينجز فيها وعده فويل له مني في التيقظ والمنام! ثم أخذا في فنون شتى من الحديث، حتى إذا حانت ساعة النوم انصرف كل إلى سريره.

ومرت أيام، ومر شهر وأكثر من شهر، وكافور لم ينجز وعده ولم يشر إليه، وتحقق المتنبي من أن الرجل خدعه، وأن الشريف كان صادقاً حين وصم الأسود بكل نكراء. ونظر أبو الطيب فرأى ما بناه من الآمال ركاماً، وما صوره من المجد أحلاماً، وأن الطائر الذهبي الذي طالما ناغاه فر من بين يديه في الهواء، وذهب إلى آفاق غير هذه الآفاق. ولم يعد يشك في أن العبد أغراه بالقدوم إلى مصر ليحتبسه بمصر، وليجعل منه شاعراً مأجوراً، يسبح بحمده في البكرة والعشي، في سبيل لقيمات يقذفها إليه في الصباح والمساء. ألا خسئ الأسود، وخسئ اليوم الأسود الذي شددت فيه رحالي إليه!

أيملكُ الملكَ والأسيافُ ظامئـــةٌ
والطـــيرُ جائعةٌ لحمٌ على وضَمِ

من لو رآني مـــاءً مات من ظمأ
ولو عرضت له في النـــوم لم ينم

خيبة

أفاق المتنبي من أوهامه ، وتيقظ من أحلامه ، وعلم أنه أخطأ حين ظن أن الناس يرون فيه ما يرى فى نفسه ، وأنهم يقدرون منزلته كما يقدرها . أفاق وقد ذهبت أمانيه بددا ، وحالت مطامعه رماداً تذروه الرياح ، فلم يبق إلا أن يعلق آماله بفاتك ، وأن يتجنب الأسود ويعود إلى ما عوده من كبر وأنفة .

أنشأ أبو الطيب قصيدة رائعة فى مدح فاتك تلقفها الناس ، وسارت بها الرواة ، وفهم منها الأدباء أنه يعرّض بكافور ويسخر من وعوده حين يقول :

واجـــزِ الأمير الذى نعماه فاجئة
بغـــير وعد ونُعمى الناس أقوال

فربمـــا جـــزت الإحسانَ موليه
خريدة من عذارى الحى مكسال

ودخل أبو بكر بن صالح على كافور وقال : إن الناس لا شغل لهم منذ شهر إلا إنشاد قصيدة المتنبي فى فاتك ، والترنم بأبياتها ، وأخشى يا مولانا أن يترك هذا الشعر أثراً فى نفوسهم ، فقد خلع عليه الخبيث كل صفات النجدة والكرم ، ولم يبق للأمير منها شيئاً . وقد نفى أن يكون له فى المملكة مثيل أو نديد حين قال :

لا يُدرك المجـــد إلا سيدٌ فطنٌ
لما يشقُ على الســـادات فعّــــال
كفاتك ودخـــول الكاف منقصة
كالشمس قلت وما للشمس أمثال

فزفر كافور وقال : هذا الشاعر كاد يضيق به صدرى ، وكلما أرخيت له العنان زاد عربدة وجنوناً . دعه الآن يا ابن صالح فإن يومه لم يأت بعد . خبرنى ، ألا يزال يذكر الولايات ، ويتغزل فى الإمارات ؟

— لا يا مولانا إنه عدل عن هذا ، وعلم أن الله حق .

فقهقه كافور وقال :

— إنى أجازى خيال هؤلاء الشعراء بخيال مثله . راقبه يا أبا بكر . فإنى أخشى أن ينتهى أمره إلى شر غاية . وبينما هما فى الحديث إذ ثارت جلبة فى القصر ، وتعالت أصوات الهتاف ، ودخل الحاجب وهو يقول : إن شبيباً العقيلى مات بدمشق يا مولانا ! فوقف كافور اهتماماً بالخبر ، ورفع يديه إلى السماء فى تخشع وخشية ، وهو يتمتم : الحمد لله ! الحمد لله ! اللهم إنى عبدك المسكين ، فانصر عبدك المسكين على أعدائه الأقوياء . ثم مال إلى أبى بكر وهمس فى أذنه : لقد شرب السم إذاً . الحمد لله ! الحمد لله !

من الذى بعثته إليه بالسم ؟

— بعثت إليه الحارث التميمى ، وهو شاب مجازف ، وقد

وعدته بخمسمائة دينار .

— إنه يستحق . كيف توصل هذا الشاب إلى هذا الأسد المصور يا ترى ؟ وكيف استطاع أن يدس له السم ؟

— لقد أخبرني قبل رحيله . بما اعتزم فعله ، فقد كان ينوى أن ينضم إلى جيش شبيب ويظهر من الحماسة فى الحرب ما يقربه إلى قلب العقيلى ، حتى إذا وثق من منزلته عنده ، وسنحت له الفرصة ، مزج له السم فى الطعام .

— هذا توفيق من الله . فكم من دماء حقنتها هذه القطرات القليلة من السم ! وكم من أرواح أنقذتها ! ونفوس ردت إليها هدوءها وسكينتها ! لقد كان العقيلى شجاعاً يا ابن صالح .

— أما وقد مات ، فقد كان رجلاً لم تلد الأمهات مثله فى الشجاعة والبطولة والكرم . ولقد كدنا نعيا بأمره ، لأننا كلما أرسلنا إليه جيشاً هزمه وفرّق جموعه ، حتى حاصر دمشق ودخلها دون أن يستطيع أحد أن يقف فى طريقه . ولولا تلك الحيلة التى ابتكرهامولانا لذهبت منا الشام ، وربما ذهبت بعدهاولايات أخرى .

— إنه خارج علينا يا أبا بكر . لقد وليناه أول الأمر عمان والبلقاء ، فلم يكتف بهما ، ولم تقف به مطامعه عند حد ، فاستهان بقوتنا ، وأدل علينا بكثرة خيله رجله . ثم ابتسم ، كما يفغر الثعبان فاه ، وقال : إن لله جنوداً لم تروها ، منها السم الزعاق .

سرت البشرى فى أنحاء المدينة ، وعين يوم فى القصر للاحتفاء بهذا النصر المبين ، وجاء هذا اليوم فتوافد على القصر

الوزراء والعلماء والقواد والأدباء وسراة المدينة ، وأعدّ المتنبي قصيدة لينشدها في هذا الجمع الحاشد، وكان حاقداً على كافور ، بعد أن حطّم آماله ، وقطع أوتاره ، فجاءت القصيدة ثورة محموم ، وتنفس غيظ مكظوم . وكان أولها :

عـدوّك مذمومٌ بكل لسان ولوكان من أعدائك القمران

ولما أنشدها وانفضّ الجمع ، قابله ابن رشدين وهو يقول : الشعر بديع يا أبا الطيب ، ولكني في الحق لم أدر ، وأنت تنشدها أكنت ترثي شبيباً أم تمدح كافوراً ؟

— كنت أرثي شبيباً ، وأعتقد أن هؤلاء الأوغاد غدروا به ودسوا له السم .

— وأنا أعتقد كما تعتقد ، ولكني إذا طلب إليّ كافور أن أقول قصيدة في ظفره بعدوّه لا أقول ما قلت .

— وماذا كنت تقول .

— كنت آتي بأعذب الشعر وأكذبه . ثم جذب منه الورقة وقال اسمع :

بِرَغْمِ شبيبٍ فارق السيفُ كفَّه
وكانـا على العِلاّت يصطحبان

كأن رقابَ النـاس قالت لسيفه
رفيقُـك قيسيٌّ وأنت يمـاني

فإن يك إنسـاناً مضى لسـبيله
فإن المنـايا غـاية الحيـوان

وما كان إلا النارَ فى كل موضع
تُثير غباراً فى مكان دخان

فنال حياة يشتهيها عدوُّه
وموتا يشهّى الموتَ كلَّ جبان

نفى وقعَ أطراف الرماح برمحه
ولم يخش وقعَ النجم والدبران

وقد قتل الأقرانَ حتى قتلته
بأضعف قرْم فى أذل مكان

أتته المنايا فى طريق خفيّة
على كل سمع حوله وعيان

ولو سلكت طرقَ السلاح لردّها
بطول يمين واتساع جنان

هذا أبدع رثاء لشبيب ، وهذه أكبر تهمة لكافور باغتياله
أين يذهب بك يا أبا الطيب ؟ أجننت ؟

— إن عيبى عندكم أننى أقول ما فى نفسى ولا أتملق تملق الإماء

— قل ما فى نفسك لى وللكثير من أصدقائك ، ولكن لا تقله فى حشد من النقاد ينتظرون الفرصة للإيقاع بك . لقد نصحك الشريف فلم تنصت لنصحه .

— إن شعرى لا يطاوعنى على الكذب الصراح ، يا ابن رشدين

— غيِّر من خلقك قليلا حتى تصرف عنك عين كافور

— أنا لا أبالى بكافور ، ولا آبه لجبان يقتل الناس بالسم

وسأصون شعرى عن هذا الأحمق حتى يصدق فى وعده ، أو يأذن الله برحيلى عنه . فجذبه ابن رشدين من يده وقال : هلم بنا إلى الدار . وانطلق الاثنان صوب دار ابن رشدين فلاقتهما عائشة مرحة ضحوكاً ، وهى تقول : لا أشك فى أنك أبدعت اليوم يا أبا الطيب ، لأنك تعود اليوم إلى فنك الذى امتزت فيه ، وهو وصف الوقائع وتمجيد الظافرين . وقد عشت بيننا عيشة هادئة ليس فيها إلا سلم دائم ، واستقرار هنىء ، وهذا الجو لم يخلق له شعرك الذى لا يجلجل إلا فى قتام الحروب ، وصليل السيوف . وكلما قرأت شعرك فى وقائع سيف الدولة أسفت لأنك فارقته ، ولكنى لا ألبث أن أعود إلى الأثرة فأستهين بالشعر كله فى جانب الظفر بعودتك . ليس عندنا هنا روم يغيرون على تخومنا ، وليس عندنا قبائل متناكرة يخلعون طاعة الأمير كلما صاح بهم صائح . فنحن نعيش فى جنة عالية ، قطوفها دانية ، لا تسمع فيها لاغية . وقد جبلنا على السمع والطاعة لأمرائنا ، واجتمعت كلمتنا على أنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان ، لذلك كنت أفكر فى شأنك يا أبا الطيب آسفة معتقدة أنك لم تخلق لهذا السكون الشامل ، والأمن الوارف ، وأتخيل أنك ولدت فى ليلة عاصفة كثيرة الأنواء والأعاصير ، كان الرعد فيها يصدع أقطار السماء ، والصواعق تنقض كأنها رؤوس الشياطين ! لقد صدئ سيفك فى غمده هنا يا أبا الطيب ، ومل جوادك من طول الوقوف . إن مثلك

لم يخلق ليجلس فى شمس الشتاء ، أو يقضى أصيل يوم الصيف فى زورق يقذف به نسيم النيل الوانى من مصر إلى حلوان . و إنما خلقت للصراع والصدام ، وأن تدخل من قتام فى قتام . لهذا حين علمت أنك ستنشد اليوم قصيدة فى تهنئة كافور بالظفر بشبيب ، قلت فى نفسى لقد جاء أوان صاحبى ، وستسمع مصر اليوم شعراً جمعت تفاعيله من أسنة الرماح وشفار السيوف . فماذا قلت يا فارس الهيجاء ؟

ــ قلت يا سيدتى قصيدة كان كل ذنبى فيها فى رأى أخيك أننى كنت صادقاً .

ــ ما عليك من أخى . هات القصيدة . ثم جذبت الورقة من يده وأخذت تقرأ ، فلما أتمت قراءتها صاحت : إنى لأجد ريح يوسف ! وإنى لأرى فى هذا الشعر صاحبى القديم وهو يعود ثانية إلى عترته ، فيصف الحرب ومواقع القتال ، ولن يستطيع شاعر من شعراء الإنس والجن أن يصوّر قدرة ملك كما يصورها هذا البيت :

لو الفلك الدوار أبغضت سعيه
لعوّقه شىءٌ عن الدوران

ماذا تقول فى هذه القصيدة يا صالح ؟

ــ أقول إنها ملأى ببدائع الفن ، ولكنها فارغة من السياسة .

فقهقهت عائشة طويلاً وقالت :

ــ أنت يا صالح منذ لحقت بديوان الرسائل وأنت تخشى

من كل شيء، وتتهم كل شيء . قاتل الله المناصب ، فكم أذلت أعناقاً، وأخرست أفواهاً . ليس فى القصيدة شيء إلا أن يخرج بها المتعنتون إلى غير مخرجها . إن فيها مديحاً رائعاً لكافور لم يظفر الرشيد والمأمون بمثله . فماذا فيها يا صالح مما تراه خارجاً عن سياج السياسة ؟

— فيها يا أديبتى البارعة أبيات إلى الذم أقرب منها إلى المديح ، ولا يعلم إلا الله ما تكون العاقبة لو تطفل خبيث ففسر لكافور معنى هذا البيت :

ولله سرٌّ فى علاك وإنما
كلام العدا ضرب من الهذيان

ثم إن فيها عشرة أبيات كلها ثناء وبكاء على شبيب ، وليس فيها من الإشارة إلى الانتصار شيء . لقد حادثت أبا الطيب فى هذا وحذرته من الانسياق وراء سوء عقيدته فى كافور . فإن الرجل غادر ماكر ، ونخشى أن يثب وثبة مفاجئة . وأبو الطيب أعز علينا من أنفسنا ، فليس من الوفاء له أن نتركه يقذف بنفسه فى هذه الفتن الهوج ، وأن يسقط فيما ينصب له من فخاخ . وهنا ظهر الحزن على وجه عائشة وقالت :

— صدقت يا أخى إن الناس جميعاً يداجون ، ولا يظفر بحاجاته منهم إلا أبرعهم فى المداجاة ، ثم نظرت إلى أبى الطيب وقالت :

— إننا نعيش فى جو كله سموم ، حتى إن سمومنا جاوزت

مصر ووصلت إلى قدح السويق الذى شربه شبيب بدمشق .
إنك لا تستطيع أن تصاول الأسود فى ميدان ، لأنه يحارب بأسلحة لا تعرف منها سلاحاً . والخروج اليوم من مملكته محال لأنه لو أراد لجعل لك من مصر كلها قفصاً قضبانه من الحديد .
فلم يبق إلا أن تجامل الرجل وتصانعه حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً . فزفر المتنبي طويلا وقال : هذا حكم القدر الساخر .
وإذا رأيتما أن لا بد من مصانعة الأسود ، فلا بدّ ، مما ليس منه بدّ ، ولكن ماذا أفعل لأتقى شر هذا الخبيث ؟

ـ تترك ذكر فاتك أولاً فلا يمر لك بلسان ، ثم تزور القصر فى كل يوم ، ثم تركب فى مواكب الأسود أينما ذهب وسار ، ثم تجامل ابن الفرات وأبا بكر ابن صالح ، ثم ترقب فرصة تنشد فيها كافوراً قصيدة خالصة له واضحة المعالم ، ليس فيها التفاف ولا التواء .

فتأوه المتنبي وتململ ، وقال : إننى يا سيدتى كدت أيأس من الحياة وأستهين بنعيمها و بؤسها . ثم أنشد وهو يتحفز للقيام :

بم التعلل ؟ لا أهلٌ ولا وطنُ
ولا نديمٌ ولا كأس ولا سكن

أريد من زمنى ذا أن يبلغنى
ما ليس يبلغه من نفسه الزمن

لا تلق دهرك إلا غير مكترث
ما دام يصحب فيه روحك البدن

مرض

استمع المتنبي لنداء عائشة فكان يزور القصر فى كل يوم ، ويبسط من وجهه لرجاله ، ويتحيّن الفرص للقاء ابن الفرات وأبى بكر ، ويبذل لهما ما يستطيع من بشر مصنوع . وكانت أبواب كافور أمامه مفتّحة مرفوعة الحجب ، فوجد المتنبى من سهولة الوصول إليه مجالا لاجتذابه ، ووسيلة إلى العود إلى مطالبه مرة بالتصريح ومرات بالتلويح . والأسود لغز مغلق ، أو بيت من أبيات الفرزدق تعب فيه المعربون والشارحون ، فهو دائماً يبتسم ، وهو دائماً مهذب أنيس متواضع ، وهو دائماً إذا أشار المتنبى إلى مطامحه سريع الإجابة على شرط ألاّ يُفهم من إجابته شيء.

خرج المتنبي من عنده يوماً وهو مهموم بعد أن مزق هذا الزنجي وسائله ، وقطع حبائله ، وبعد أن عبث بهذا العقل الحكيم المتفلسف كما يعبث الصبي بالأكر . خرج يتعثر فى طريقه وهو يشعر بصداع شديد كاد يمزق جبهته وصدغيه ، ويحس ّ برداً يسرى فى أوصاله اهتزت له ذراعاه ، وقضقضت أسنانه ، فأسرع إلى داره وهو يمشى كالمختبل ، وما كاد يصل إليها حتّى دعا عبده مسعوداً ليساعده على خلع لباسه ، فلما انتهى رمى بنفسه فى فراشه وهو يصيح : غطنى . زملنى . لا تترك

فى الدار غطاءً ولا مطرفاً ولا حشيّة إلا وضعته على جسمى ! أوقد النار يا مسعود . إن ثلوج الشام جميعاً تتساقط على فراشى ، وتنفذ إلى مسارب جسمي . لقد قتلنى ابن سوداء الجبين بالسم ، سأموت بهذا البلد النائى طريداً شريداً خائب الأمل مفصوم الرجاء .

وعصفت الحمى بالمتنبي ، واجترفه تيارها فتصبب جسمه عرقاً ، وراح فى سبات مضطرب قلق، وأخذ يهذى ويصرخ بألفاظ تقطّع نياط القلوب . فقد سمعه عبده وابنه وهو يقول : جئتَ مصر يا أبا الطيب ؟ . . . إضرب هذا الكلب يا محسّد قبل أن يثب على . . . . مرحى مرحى . . . كنت ترجو أن تنال كل شىء، فلم تظفر بشىء . . . أبعد الكلب عنى يا مسعود . مسكين مسكين . . . حلب حلب أين منك حلب . . . مرحباً بمولاى سيف الدولة !

نهبت من الأرواح مالو حويتــه
لهنئت الدنيـــا بأنك خـــالد

لقد كاد يقتلنى هذا الفرس الجامح . . . لا تكثر من الكلام يا ابن رشدين . . . جئت إلى الأسود فعاقبنى الله على يد الأسود . . . يا للخزى ويا للعار . . ذهب مجد أبى الطيب . . . كافور ! أنت الشمس وأنت القمر . . . معد بن عدنان فداك ويعرب . . . ها . . ها . . . معد بن عدنان فداء هذا الزنجى الحبشى الذى بيع بثمانية عشر دينارا. . . ها . . . ها . . . ثمانية

عشر ديناراً ليس غير . . . ليس غير . . . من يشترى ؟ . .
سنبيع العبد أيها السادة . . .
ثم تشتد به الحمى فيغط فى نوم عميق .

أصيب المتنبى بالحمى الأجمية (الملاريا) وكانت إصابته شديدة ، وحينما أفاق فى الصباح زالت عنه آثار الحمى وخمدت نارها ، ولكنها خلّفت وراءها آلاماً فى العظام ، وضعفاً فى الجسم شديداً . فقضى النهار فى سريره ، وما كادت تختفى الشمس ويرسل الليل على الكون سدوله ، حتى عاودته الحمى أشدّ ما كانت ، وسبح فى بحر مضطرب من الهُراء والهذيان .

ومرت ثلاثة أيام لا يزور فيها المتنبى دار ابن رشدين ، فقلقت عائشة ، ودخلت على أخيها شاحبة مضطربة ، وهى تقول :

ــ هل رأيت أبا الطيب ؟

ــ لم أره منذ ثلاثة أيام . ماذا بك يا عائشة ؟

ــ ليس بى شىء إلاّ أنه لم يعودنا أن ينقطع عن زيارتنا يوماً واحداً ، وأخشى أن يكون قد أصابه مكروه .

ــ لا تراعى يا حبيبتى ، فقد يكون ذهب إلى بعض أصدقائه بالجيزة ، وقضى عندهم أياماً ، وسأذهب الآن إلى داره وآتيك بالخبر اليقين .

ــ اذهب يا صالح وعد إلىّ بجلية الأمر ، فإن الشك يكاد يقتلنى .

وخرج صالح مسرعاً حتى بلغ الدار ، والشمس مائلة للمغيب ، فلما دخل وجد العبيد صامتين واجمين ، وأحس بسكون الموت يلف الدار ، ويرف بجناحه البارد على كل ركن من أركانها . فمر حتى بلغ حجرة المتنبي فرأى محسداً ومسعوداً جالسين حول سريره فى حزن وإطراق ، ورأى المتنبي مسجى يتنفس تنفساً قصيراً مضطرباً . فمشى على أطراف أصابعه كأنه يمشي فوق أرض مقدسة ، ثم لمس كتف محسد لمساً خفيفاً ، وأشار إليه أن يخرج ليسائله . فلما خرج سأله مذعوراً :

— ما الخبر يا محسد ؟

— لا ندرى يا سيدى . فقد جاء أبى من القصر مساء السبت وهو يشعر ببرد شديد ، ثم انتهى هذا البرد إلى سخونة كأنها من لفح الجحيم ، ثم حسنت حاله فى الصباح ولكن الحمى لا تزال تراوحه كل مساء .

— سيشفى قريباً إن شاء الله . لا تجزع يا محسد ، فإننا اعتدنا هذه الأمراض فى مصر حتى ألفناها . سأمر عليكم فى الصباح لأراه ، وأرجو أن يكون قد أبل .

ويذهب قُدماً إلى عائشة فينفض إليها الخبر ، فتطير نفسها شعاعاً ، وتسرع إلى ثيابها لترتديها فيصيح بها أخوها : إلى أين يا عائشة ؟

— إلى أبى الطيب . هلم معى إليه فوالله ما يمنعنى من الذهاب وحدى إلا أنى امرأة ، ولن يليق بنا يا أخى أن نترك

هذا الرجل الغريب المسكين يموت وحده منكوداً محسوراً . إن مَن اسمه يملأ فم الدنيا ، وشعره تتغنى به الآفاق ، يرقد الآن مسجىً فى قاعة مظلمة ، يطلب العطف فلا يجده إلا فى قسوة الأقدار ، والحنان فلا يراه إلا فى مخالب الموت ! هلمَّ يا أخى إليه ، فلعلنا نستطيع أن نعمل له شيئاً إن بقى هناك شىء يعمل .

ويصلان إلى الدار ويدخلان حجرة المريض وهو يصلى بلهيب الحمى ، ويئن أنيناً ، وقد عاوده الهذيان فجعل يصيح :

حاذر سيف الدولة . . . إن العلج وراءك وسيفه فى يده . . . لقد قتلت الملعون برمحى . . . قتلته . . . قتلته . . . ما هذه النيران التى ترسلها علينا الروم كأنها قطع الجحيم ؟ . . أبعدوا هذه القرود عنى . . . أنا اليوم والى صيداء . . . أقبلوا أيها الوفود . . . هل من ظلامة ؟ . . . الصل الأسود ! . . . أبعدوا. الصل الأسود عنى . . . إنه كاد يقتلنى . . . مدحته . . . مدحته . . . وماذا فى يدى ؟ . . . لا شىء . . . لا شىء . . آمالى ؟ . . . أطماعى ؟ . . . طموحى ؟ . . . هواء . . . هواء . . . هواء .

وغلبته الحمى فحبست لسانه ، وسمعه صالح وعائشة فغلبهما البكاء ، وأخذت عائشة تهز رأسها فى حزن ممضّ وتقول :

واحسرتاه على البطولة الوثّابة ، والرجولة الغلاّبة ! واحسرتاه على الخلق الراسخ ، والمجد الشامخ ! على مثلك أبا الطيب تشق

الجيوب وتمزق القلوب . أسفى على ذلك اللسان العضب الذى كان ينثر فرائد الحكم ، كيف أصبح يهذى كما يهذى الممرور ! وعلى ذلك العقل القهار ، كيف اضطرب ميزانه والتهمته النيران !

ثم قامت متعثرة متخاذلة ، وهى تقبض على يد أخيها وتقول لمحسد : لا بد له من طبيب . لا يصح أن نترك شاعر الدنيا وحكيمها يموت دون أن نبذل كل شىء فى سبيل شفائه . سأذهب أنا وأخى إلى الطبيب .

ثم يخرجان فى عجلة حتى يصلا إلى دار بزقاق القناديل ، كان يسكنها « نسطاس بن جريج » أشهر أطباء مصر فى هذا العهد ، حتى إذا طرقا الباب وأخبرا الطبيب الخبر ، لبس ثيابه على عجل وخرج معهما حتى بلغوا دار المتنبى ، وبعد أن اختلى الطبيب بمحسد وأخبره بكل شىء ، دخل على المريض فجس يده ، وهز رأسه وقال : إن المرض شائع معروف بمصر . وهو سليم العاقبة إذا عنى بالمريض . ثم التفت إلى عائشة فرأى الدموع تنهمر من عينيها ، فضحك طويلاً ، وربت كتفها وهو يقول : لا تخافى يا سيدتى على شاعرنا ، فإنى عالجت آلافاً من أمثاله ، وقد شفوا جميعاً . والذى أوصى به أن تبعدوا عنه اللحم والسمك ، وأن تقصروا غذاءه على اللبن ، وأن تسقوه إذا عطش ماء السكر الممزوج بعصير الليمون . وسأبعث إليكم بقارورة دواء يشرب منها نصف كأس ثلاث مرات فى كل يوم . إنه سيجد الدواء

مرا . ولكنه دواء شاف سريع الأثر . ثم التفت إليهم وقال فى سخرية تُحبّ دائماً من الأطباء : لا تخافوا يا أولادى فإنه سيشفى بعد أيام ، ثم حيّاهم وانصرف ، وقد ملأ نفوسهم آمالا ، وبدّلهم من بعد خوفهم أمناً . والتفتت عائشة إلى محسد كالمستأذنة المتهيبة وقالت : هل من بأس فى أن أبيت أنا وأخى هنا الليلة ؟ فأجاب مسرعاً : لا يا سيدتى إن ما تبثينه حول المريض من رحمة وحنان سيكون أشفى له من كل دواء .

واستيقظ المتنبي فى الصباح مضنًّى منهوكاً ، فلما فتح عينيه ورأى صالحاً وعائشة جالسين إلى سريره كاد ينكر ما أبصر ، فحملق فى دهش وقال فى صوت خافت : أنت هنا يا صالح؟! أنت هنا يا سيدتى ؟ ! ! الآن لا أحس بأوجاع الداء . جزاكما الله عن الغريب المسكين خيراً ! لا تخافا علىّ ، فإنى لا أظن أنى مائت فى هذه الرقدة ، لأن الله أكرم من أن يقضى علىّ قبل أن أنال من آمالى شيئاً .

وبعث الطبيب بالدواء ، ومرت أيام على أبى الطيب كان يشعر فيها بدبيب الشفاء يسرى فى أوصاله ، فلما استطاعت يده أن تقبض على القلم طلب من محسد ورقاً ، ثم وضع يده على جبهته ، وسرى فى بادية من الخيال ، وأخذ يكتب . وعاد بعد حين صالح وعائشة إلى زيارته فمد إليهما يده بورقة فاختطفتها عائشة ونظرت فيها ملياً ، فإذا قصيدة من أروع ما تنفّس به الشعر العربى ! بدأها بالشكوى وضعف الثقة بالناس . ثم ثنى

بوصف الحمى التى أصابته ، ثم عاد إلى ذكر سوء حاله بمصر ، وإلى تمنى الرحيل عنها ، فى أسلوب يستنزل العصم ، ويذيب الصخور الصم . نظرت عائشة فى القصيدة ثم قرأت بصوت عال :

ولما صار ودُّ الناس خبّاً
جزيت على ابتسام بابتسام
وصرت أشك فيمن أصطفيه
لعلمى أنه بعض الأنام
وآنف من أخى لأبى وأمى
إذا ما لم أجده من الكرام
ولستُ بقانع من كل فضل
بأن أعزَى إلى جد همام
عجبت لمن له قدٌّ وحد
وينبو نبوة القَضِم الكهام
ولم أر فى عيوب الناس شيئاً
كنقص القادرين على التمام
أقمت بأرض مصر فلا ورائى
تخبّ بى الركاب ولا أمامى
وملنى الفراش وكان جنبى
يملُّ لقاءه فى كل عام

وزائرتي كأنّ بها حياءً
فليس تزور إلا في الظلام
بذلت لها المطارف والحشايا
فعافتها وباتت في عظامي
أراقب وقتها من غير شوق
مراقبة المشوق المستهام
ويصدُق وعدها ، والصدُق شر
إذا ألقاك في الكرب العظام
أبنت الدهر عندي كل بنت
فكيف وصلت أنت مَن الزحام ؟
جرحت مجرّحاً لم يبق فيه
مكان للسيوف ولا السهام
يقول لى الطبيب : أكلت شيئاً
وداؤك في شرابك والطعام
وما في طبه أنى جواد
أضر بجسمه طول الجمام
تعود أن يغبّر في السرايا
ويدخل من قتام في قتام
فإن أمرض فما مرض اصطباري
وإن أحمم فما حُمّ اعتزامي

وإن أسلم فما أبقى ولكن
سلمت من الحمام إلى الحمام

فلما انتهت صاحت : لقد غفرت للحمى كل ذنوبها ! وإذا كانت الكوارث تخلق مثل هذا الشعر ، فمرحباً مرحباً بالكوارث !

وتسامع الأدباء بالقصيدة ، وأقبلوا زرافات على دار المتنبي يستنسخونها ، وأجمعوا على أنها خير ألف مرة من رائية عبد الصمد بن المعذل فى وصف الحمى . ووصلت نسخ منها إلى القصر ، واجتمع رأسان لقراءتها ليستخرجا منها ما يصلح لدسيسة جديدة ، هما رأس ابن الفرات ورأس أبى بكر بن صالح .

ولكن روح المتنبي كانت تحوم حولهما وهى تهمس :

ومراد النفوس أصغر من أن
نتعادى فيه وأن نتفانى
غير أن الفتى يلاقى المنايا
كالحات ولا يلاقى الهوانا

فرار

أبل المتنبي من الحمى ، وعادت إليه قوته ، وأخذت آماله تطل برءوسها من جديد ، وعاد أصدقاؤه وخلصاؤه ينصحون له بمجاملة كافور ، واستجلاب مودته ، بعد أن أساءته قصيدة الحمى وزادته سخطاً على الشاعر . فعاد المتنبي إلى زيارة القصر ، وإلى مجازاة الابتسام بالابتسام كما يقول ، حتى إذا كان شهر شوال سنة ثلاثمائة وتسع وأربعين أوعز كافور إلى أحد ندمائه أن يدعو المتنبي إلى مديحه ، وأن يمنيه الأماني . وكان كافور يريد أن يزيل بالقصيدة الجديدة ما تركته قصيدة الحمى من سوء الأثر في نفوس المصريين واستجاب المتنبي لما طلب منه ، وعاوده الأمل في أن الأسود سيفي بوعده آخر الأمر ، وأنشأ قصيدة كانت آخر سهم في كنانته . والقصيدة — كما عودنا أبو الطيب عند مدح كافور — ليس فيها من مدح كافور إلا التافه اليسير ، فإنه تحدث فيها عن نفسه في ثمانية عشر بيتاً ، وألح في إنجاز ما وعد به في عشرة أبيات ، كان منها :

وفي النفس حاجات وفيك فطانة
سكوتي بيان عندها وخطاب

ولما أتم المتنبي القصيدة أمام كافور ، قال له ابن الفرات في خبث ودهاء : أجدت أبا الطيب وأحسنت ! غير أن

قصيدتك فى مدح فاتك كانت أجزل من هذه ، وأطول نفساً ، ولكن لعلك تريد أن تحقق ما قلته فى قصيدة فاتك :

وقد أطـــال ثنائى طـــول لابسه

إن الثنـــاء على التنبـــال تنبـــال

فوجم المتنبي لهذا السهم النافذ ، وعلم أن لا مخلص له من الدسائس ما دام بين هؤلاء المناكيد .

وانتظر المتنبي وعد كافور فطال انتظاره . وكان الأسود قد أذن لفاتك بدخول الفسطاط للاستشفاء بعد أن ألحت عليه العلة بالفيوم ، فجدد أبو الطيب الاتصال به ، ورأى بعد أن يئس من كافور أن ينزل حاجاته بواديه الخصيب . وتوثقت المودة بين الصديقين ، وهب الجواسيس وقالة السوء ينقلون إلى القصر كل يوم أخبارهما ، وربما غالوا فى الأخبار وزوقوا الأحاديث ، بما يضيفون إليها من زور وبهتان .

ومر عام وأكثر من عام على هذه الحال فطالت الجفوة بين المتنبي وكافور ، واتسعت الهوة ، وأصبح المتنبي لا يمشى خطوة إلا ووراءه جاسوس يرقب كل ما يقول ويفعل ، ويكاد يعد عليه أنفاسه .

زاره مرة ابن رشدين فاستقبلته عائشة ، وعلى وجهها مسحة من كآبة ، وهى تقول :

ــ أهلا بالشاعر الكسل ! أتمر سنة لا نسمع فيها منك شيئاً ؟ !

ـ إن البلابل لا تغنى وسط حفيف السهام . إنى قدمت إليك وورائى جاسوس صحبنى من دارى إلى هنا ، وأخشى أنه لا يتحرج من أن يكون بعد قليل ثالثنا .

ـ كيف ذلك يا أبا الطيب ؟

ـ جيرانى أصبحوا علىّ عيوناً ، وصاحب الأخبار يطرق دارى كل ليلة ليتحقق من أننى لا أزال بمصر ، وأننى لم أفر .

وبينما هما فى الحديث إذ دخل ابن رشدين ومعه الشريف إبراهيم العلوى وعبد العزيز الخزاعى ، فلما رأوا المتنبى أقبلوا عليه يحيونه . وقال عبد العزيز :

ـ مالى أراك واجماً يا أبا الطيب ؟

ـ إن حبل كافور يضيق حول عنقى قليلا قليلا ، فلم يبق إلا أيام حتى أختنق . فأسرع الشريف يقول : هذا صحيح . ويجب علينا جميعاً أن نفكر فى هذا الأمر الجلل . فصاحت عائشة فى ذعر : ما الخبر ؟

ـ الخبر يا سيدتى أن حاجب الوزير أبى بكر بن صالح شيعى شديد التمسك بمذهبه ، وهو لهذا يخلص لى الحب والمودة ، ثم هو يعلم صلتى بأبى الطيب . وقد زارنى اليوم وأكد لى أنه سمع كلاماً دار بين أبى بكر وابن الفرات يدل على أن هنالك مؤامرة دنيئة تحاك خيوطها للإيقاع بالمتنبى بعد عيد الأضحى . فقالت عائشة :

ـ بقى على العيد أيام . . .

— فى هذه الأيام نستطيع أن نعمل عملا حاسماً . فقال عبد العزيز :

— الرأى عندى أن يستعد أبو الطيب من الآن للفرار . ثم طلب منهم إغلاق الأبواب والمنافذ وعاد إلى الحديث فقال بصوت خافت : يقوم العبيد غداً بدفن الرماح فى الرمل وراء المقطم ، وقبل الرحيل بقليل تحمل على الإبل قرب من ماء النيل تكفى لعشر ليال ، ويحمل زاد يكفى لعشرين يوماً حتى إذا كانت ليلة عيد الأضحى تسلل أبو الطيب إلى الصحراء بعد أن يتسلل إليها قبله ابنه وعبيده ، وسأكون فى رفقة الشاعر ، وسنهتبل فرصة اشتغال رجال القصر بالعيد وبما يوزعه عليهم كافور من الهدايا والصلات ، فنفر دون أن يشعر بنا أحد ، حتى إذا فرغوا من العيد ومن منح الهبات ، ولن يكون ذلك إلا بعد يومين نظروا يمنة ويسرة فلم يجدوا لطريدتهم أثراً .

فقال الشريف : هذا حسن . ولكن كافوراً إذا لم يجده بعد يومين من فراره أرسل خلفه شياطين جنده فوق سوابق الخيل فأدركوه ولو كان فوق بساط سليمان . فقال عبد العزيز :

— إننا سنغادر الفسطاط قبل فجر يوم الأضحى ، وسنمتطى جوادين من سلالة الجواد الذى وصفه أبو الطيب :

رجلاه فى الركض رجلٌ واليدان يدٌ
وفعله ما تريد الكف والقــدم

فلن يدركنا الظهر إلا ونحن أمام بلبيس ، وهناك أرسل مع

أبي الطيب بعض عبيدى الذين يعرفون مسالك الصحراء . فقال ابن رشدين فى حدة :

— أى طريق يسلكون ؟ إن سلطان كافور يمتدّ إلى كل طريق توصل إلى العراق .

— إنهم سيسلكون طرقاً غير معروفة ، ويطرقون مفاوز مجهولة ، وينزلون حولَ مناهل لم يطرقها طارق ، وإن جنود كافور بعد طول البحث والنصب سيتطلعون إلى السماء ، ويظنون أن أبا الطيب قد اتخذ إليها سبيلا . فتنهدت عائشة ونظرت إلى المتنبي ، ودموعها تنهمر انهماراً . ثم عادت تفكر فرأت أن حياته فى ميزان القدر ، وأنها يجب أن تنسى نفسها لقاء نجاته من كارثة محققة ، فحاولت أن تجفف من دموعها ، وتبسط من وجهها وقالت :

— ولكن حتى يحين موعد الفرار يجب على أبى الطيب أن يظل متصلا بالقصر حتى يصرف الأنظار عنه . فقال الشريف

— نعم . وفوق هذا أرى أن يذيع بين رجال القصر أنه سينشد كافوراً قصيدة بعد أيام العيد . فصاح الجمع : هذا حسن هذا حسن . . .

وقام المتنبي إلى داره ومعه عبد العزيز . وما أشرق عليهما الصباح حتى شرعا فى إنفاذ خطتهما فى دقة وإحكام . وكان المتنبي فى غضون هذه المدة يروح ويجيء مطرقاً حزيناً يتمتم بكلمات ، ثم يخرج من كمه ورقة يدوّن فيها ما تفيض به

شاعريته . وتسلل محسد والعبيد متفرقين من الفسطاط إلى بلبيس ، فلم يشعر بهم أحد . وانتظر المتنبي وعبد العزيز ليلة العيد حتى إذا هدأت الأصوات ، ونامت العيون ، وخلت الطرق من السابلة ، خرجا من الدار فى إسراع وصمت ، كأنهما طيف خيال أو خطرة ببال . وما جاوزا باب الصفاء ، حتى طار بهما الجوادان فلم تستبن العين لهما أثراً .

ولاح فجر العيد سنة خمسين وثلاثمائة ، وذهب كافور فى موكبه الحافل للصلاة بالجامع العتيق ، وشغل رجال القصر بعد الصلاة ببذل العطايا للعلماء وكبار الجنود ، ومضى يومان ذهل فيهما القوم عن المتنبي وعن تقصى أخباره . وحدث بعد ذلك أن دخل أبو بكر بن صالح على ابن الفرات وقال :

— لم نر المتنبي أيام العيد ولم يزرنا فى خلالها فماذا جرى له ؟

— لعله مريض . فأرسل بعض الأعوان للسؤال عنه .

فأسرع أبو بكر وأمر طائفة من الجند بالذهاب إلى دار المتنبي والتحقق من أمره ، وسار الجند إلى الدار فرأوا بابها مغلقاً ففتحوه ودخلوا فلم يجدوا بالدار ديّاراً . فأخذتهم الدهشة ، وأخذوا يبحثون فى كل حجرة . وبلغ أحدهم حجرة نوم المتنبي فرأى سريره وكأن فوقه شيئاً قد التف بغطاء ، فصاح فى جذل : هنا الشاعر يا إخوانى ! هلم إلىّ ! إنه نائم فى فراشه . وجاء الجند ، ورفع أحدهم الغطاء فلم يجد تحته إلا ورقة كتبت فيها قصيدة طويلة فأخذها . وبعد أن يئس الجند من العثور على

الشاعر ذهبوا إلى أبى بكر وأخبروه الخبر . فأسرع إلى كافور وهو يرتعد من الغضب ويصيح : لقد فر المتنبى يا مولانا ! لقد فر من أيدينا على الرغم من كل ما بذلنا من حيطة وحذر ! فصاح كافور فى صوت يخنقه الغيظ : أى حيطة وأى حذر ؟ ويل لنا منه إن لم نقبض عليه ! ! سيخلد هجونا على الدهر ، وسيجعل من اسمنا سخرية ترددها الأيام ! ابعثوا خلفه الجنود . ابعثوهم وراءه فى كل مكان يمكن أن ينفذ منه : فى الصعيد ، وفى طريق الشام ، وفى طريق برقة ، وفى الماء ، وفى الهواء . فر منى الفاجر وضحك منى ولعب بى ! وكنت أظن أنى ألعب بألف من أمثاله المغرورين ! وبينما هو فى حدة غضبه يزمجر كما يزمجر النمر الجريح ، إذ مد الجندى يده إلى أبى بكر بالورقة التى رآها فى فراش المتنبى فأخذها منه ويده ترتعد . ورآه كافور فسأله ما هذه ؟ فلمح منها أبياتاً وقال :

يا مولانا هذه قصيدة وجدها الجنود فى فراش الشاعر البغيض ولن أستطيع قراءتها . فصاح كافور فى غضب مخيف : اقرأ ويلك كل ما فيها ، ولا تترك منها حرفاً ! فقرأ وهو يتصبب عرقاً :

عيد بأية حال عدت يا عيد ؟
بما مضى ؟ أم لأمر فيك تجديد ؟
أما الأحبة فالبيداء دونهم
فليت دونك بيداً دونها بيد !

لولا العلا لم تجب بى ما أجوب بها
وجناء حرف ، ولا جرداء قيدود
يا ساقيي أخمر فى كؤوسكما
أم فى كؤوسكما هم وتسهيد ؟
أصخرة أنا مالى لا تحركنى
هذى المدام ولا هذى الأغاريد
إذا أردت كميت اللون صافية
وجدتها وحبيب النفس مفقود
ماذا لقيت من الدنيا ؟ وأعجبه
أنى بما أنا باك منه محسود !
أمسيت أروح مثر خازناً ويداً
أنا الغنى ، وأموالى المواعيد !
إنى نزلت بكذابين ، ضيفهم
عن القرى وعن الترحال محدود
جود الرجال من الأيدى ، وجودهم
من اللسان . فلا كانوا ولا الجود !
ما يقبض الموت نفساً من نفوسهم
إلا وفى يده من نتنها عود
أكلما اغتال عبد السوء سيده
أو خانه فله فى مصر تمهيد ؟ !

نامت نواطـــير مصر عن ثعالبها
فقد بشِمْن وما تفنى العناقيـــد !
لا تشتر العبـــد إلا والعصا معه
إن العبيـــد لأنجاس مناكيـــد
ما كنت أحسبنى أحيا إلى زمن
يسىء بى فيه عبد ، وهو محمود !
ولا توهمت أن النـــاس قد فقـــدوا
وأن مثل أبى البيضاء موجـــود !
جوعان يأكل من زادى ويمسكنى
لكى يقال عظيم القـــدر مقصود
من علّم الأســـود المخصىّ مكرمة
أقومه البيض أم آباؤه الصيـــد ؟
أم أذنه فى يد النخـــاس دامية
أم قدره وهو بالفلسين مردود ؟

* * *

وعاد الجنود بعد شهر فدخلوا على كافور يخبرونه فى دهش ، بأنهم لم يتركوا منفذاً إلا سلكوه ، ولكنهم لم يقفوا للمتنبي على أثر ، كأنه ابتغى نفقاً فى الأرض أو سلماً فى السماء . فصعق كافور ، وكاد يسقط من كرسيه . ثم حملق مذعوراً كأنه كان ينظر إلى المتنبي وهو يفرقع بإصبعيه فى وجهه ساخراً ويقول :

فربّما شفيتُ غليــل صــدري
بسير أو قنــاة أو حســام
وضــاقت خطــة فخلصت منْها
خلاص الخمر من نسج الفــدام

تم طبع هذا الكتاب بالقاهرة
على مطابع دار المعارف بمصر

دار المعارف بمصر

تهدف إلى نشر الثقافة عن طريق الرقى بالكتاب العربى

مكتبة الأطفال والناشئة :

أكبر وأجمل مكتبة للأطفال فى الشرق العربى ، تضم أكثر من ٥٠ مجموعة تستهوى الأطفال بفنها وألوانها .

المكتبة الثقافية :

تقدم آخر ما وصلت إليه المنجزات البشرية ، وتكشف عن القيم الخالدة للتراث الإنسانى .

المكتبة المتخصصة :

تقدم الأعمال العلمية والفنية والأدبية التى تهم القارئ المتخصص .

الكتب المدرسية :

نشرت الكتاب المدرسى فى أرجاء الوطن العربى .

سلسلة (اقرأ) :

طبقت شهرتها الآفاق بتنوع موضوعاتها ، و رخص

خدمات التوزيع :

بجانب توزيع كتبها فى جميع أنحاء العالم ، تقو
كتب أخرى مختارة بشروط خاصة .



خذ المعارف من دار المعا

القاهرة : ١١١٩ كورنيش النيل و ٩ شارع كامل صدق
و ١٠٥ شارع شبرا — وميدان السيدة زينب
الاسكندرية : ٤٢ شارع سعد زغلول — و ٢ ميدان التحرير بالمنشية أسيوط

٥ قروش ج . ع . م .	١٠٠ مليم فى ليبيا	١,٥٠ ديناراً فى الجزائر
٦٠ ق . ل	٧٥ فلساً فى العراق والأردن	١٥٠ فرنكاً فى المغرب
٧٥ ق . س	١٢٠ فلساً فى الكويت	١ ريالا سعودياً
٦٠ مليماً فى السودان	١٢٥ مليماً فى تونس	